

بحوث في تاريخ بلاد الشام

تاريخ دولة الأنباط

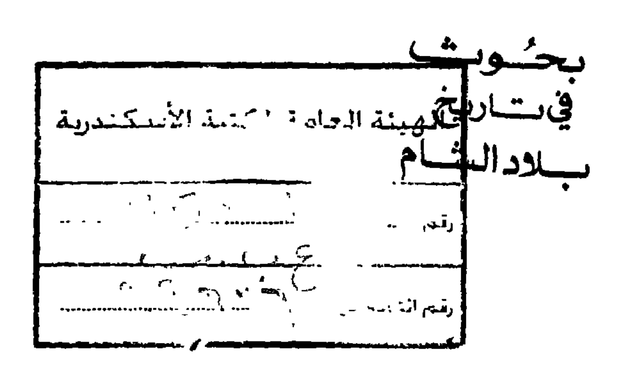
الشروق



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تاريخ دولة الأنباط

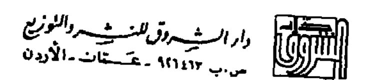

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



بحوث في تاريخ بلاد الشام

تاريخ دولة الأنباط

إحسان عباس


دار الشروق للنشر والتوزيع
ص.ب ٩٢٦٤٦٣ - عمان - الأردن

* إحسان عباس : تاريخ دولة الأنباط
* الطبعة الأولى ١٩٨٧ .

* الناشر : دار الشروق للنشر والتوزيع
ص . ب ٩٢٦٤٦٣ عمان - الأردن
هاتف ٢٤٣٢١ - تلكس ٢١٧٠٧ ريم
* التوزيع : المركز العربي لتوزيع المطبوعات ش. م. م.
ص . ب ٥٩٦٠/١٣ (شوران) بيروت - لبنان .
* تنضيد الأحرف والماكيت :
المجموعة الطباعية ش . م . م . (ناصر عاصي)
* تصميم الغلاف : نجاح طاهر.

طبع في شركة مطابع الأرز هاتف ٨٧٢٠١١ تلفاكس ٦١٢١٩٠

رقم الايداع لدى مديرية المكتبات والوثائق الوطنية ٤٣٧ - ١٠ - ٨٦.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

حين كلفت بكتابة تاريخ بلاد الشام على ضوء البحوث التي قدمت ـ وما تزال تُقَدّم ـ إلى مؤتمرات تدعو لها الجامعة الأردنية، في دورات منظمة، وتحمل عنوان «مؤتمرات تاريخ بلاد الشام» كنت على يقين أنني أتحمل مسؤولية كبيرة، وأواجه مهمة غير سهلة. كذلك رأيت أن عملي لا يقتصر على قراءة البحوث التي تلقى في المؤتمرات المشار إليها، بل لا بدَّ لي من الرجوع إلى المصادر الكثيرة والدراسات والبحوث المتعددة، فعكفت على القراءة وتدوين الملاحظات التي سأستخدمها في إنجاز المشروع الكبير.

وفيما أنا آخذ في هذا الاتجاه من التثقيف الذاتي، وجدت أن هناك جوانب على هامش المشروع الكبير تستحق التجلية والايضاح، ولذلك خطر لي أن أقوم ببعض دراسات منفصلة، أو أترجم بعض فصول من مصادر قيمة، فأخدم تاريخ بلاد الشام على مستويين.

وقد قطعت شوطاً طويلاً في دراسة تاريخ الدول التي ظهرت في بلاد الشام (في فترات تقع خارج نطاق المشروع الكبير) فرأيت أن أشرك القراء معي في ما وجدته من كشوف أثناء قراءاتي، وبدأت بتاريخ دولة الأنباط، لأني لم أجد شيئاً يشفي الغليل عن دورها التاريخي الحضاري، مكتوباً بالعربية[1].

---

(١) ذكر لي بعض العارفين أن الصديق محمود العابدي ـ رحمه الله ـ كان قد أصدر كتيباً في هذا المضمار، ولكني لم أستطع الحصول عليه، رغم محاولاتي الكثيرة.

فهذه الدراسة التي أقدمها حصيلة قراءات كثيرة، ليس لي من فضل في الكثير منها لأن مادتها مستقاة في معظمها من المصادر الملحقة بهذه الدراسة؛ غير أني لم آل جهداً في تحكيم تصوّري لطبيعة ذلك التاريخ وأحداثه، وتلوين المادة التي أعالجها بلون أسلوبي وطريقتي في التفكير والتعبير لئلا أكون محض ناقل عن الآخرين.

وحين كان هدفي الأكبر أن يفيد من هذه القراءة القارىء غير المتخصص، وجدتني لا أذيل صفحات هذه الدراسة بالإحالات إلى المصادر والمراجع، لأنها لا تهم كثيراً القراء الذين من أجلهم وضعت هذه الدراسة.

وبعد أن انتهيت من إعداد هذا الكتاب عرضته على صديقين عالمين مؤرخين هما الدكتور محمد عدنان البخيت عميد البحث العلمي بالجامعة الأردنية، والدكتور كمال الصليبي رئيس دائرة التاريخ بالجامعة الأمريكية ببيروت، وقد قرأ كلاهما الكتاب بدقة، وزودني كل منهما بتعليقات وملاحظات قيمة جعلتني أعود إلى الكتاب فأغير فيه ما من حقه التغيير، وأحذف منه ما لا يتفق وطبيعته المبسطة، وأزيد حيث تكون الزيادة عوناً على الوضوح، فللصديقين الكريمين جزيل الشكر على ما بذلاه من جهد وأنفقاه من وقتهما الثمين في مراجعة الكتاب.

ويطيب لي هنا أن أخصّ بالشكر أيضاً عدداً من الذين أسهموا في تذليل العقبات التي كانت تعترضني للفقر في المصادر الموجودة لديّ إما بتصوير البحوث والكتب أو محاولة الحصول عليها بالشراء؛ وفي مقدمة هؤلاء الدكتورة وداد القاضي التي أمدتني بكثير من البحوث المصورة حين كانت أستاذة زائرة بجامعة كولومبيا ـ نيويورك (١٩٨٥ ـ ١٩٨٦) والدكتور رضوان السيد الذي صوّر لي بعض البحوث لدى إقامته بتيوبنغن بألمانيا وبعث إلي ببعض كتب أحتاجها؛ والدكتور مارتن هايندز بجامعة كيمبردج

الذي زودني بعـدد من البحـوث المصـورة من مكتبـة الجامعـة هنـالك؛ وللعاملين في قسم الدوريات بمكتبة الجامعة الأردنية شكري لأنهم سهلوا لي الحصول على ما كان متيسراً لديهم من بحوث، ولمكتبة الجامعة ممثلة بمديرها الدكتور هاني العمد، ولمدير مركز الوثائق والمخطوطـات في مكتبـة الجامعة السيد نوفان الحمود كل عرفان بالجميل لمبادرتهما إلى تزويدي بكل ما كنت أطلبه من كتب ودوريات. أمـا الآنسـة راوية شفيق عيسى نبيل بمكتبة دائرة الآثار بعمان فقد بذلت كل جهد مشكور لتجعل ترددي على المكتبة ذا جدوى حين أذنت بتصـوير كلّ ما وجدتـه هنـالك من بحـوث ضرورية لانجاز هذه الدراسة. وفي المراحل الأخيرة من هذا العمل كان لملاحظات الدكتور نبيل خيري بالجامعة الأردنية الأثر الهام في تدقيق بعض الجوانب وفي اختيار الصور الضرورية لتوضيح مادة الكتاب.

وأخيراً وليس آخراً ما كان لهذا الكتـاب أن يجـيء مزوداً بالرسـوم والخرائط لولا العون الذي قدمته إليّ السيدة حنان الكردي من دائرة الآثار؛ ولا ريب في أن كل ما يتمتع به هذا الكتاب من صور فإنما يعود الفضل في إخراجه إلى مصور الجامعة الأردنية الأستاذ سركيس لبجيان (الشهير بـ «أبو حنا») فإن حسه الفني وإخلاصه لكل ما يخدم العلم أمران حقيقان بالتقدير. كذلك لا أنسى الجهد الذي بذله الأستاذ يوسف عبيد برسم الجغرافيا بالجامعة الأردنية في إمدادي بخريطة موضحة لأهم المواقع النبطية؛ هذا وإني لأتقدم بالشكر الجزيل للجامعة الأردنية التي منحتني الوقت الكافي لأتفرغ للبحث العلمي. فأنا مدين لكلّ من ذكرت بما أعان على أن يجعل هذا الكتاب حقيقة واقعة بعد أن بدأ فكرة مترددة غائمة، وإذ أتقدم من كل منهم بواجب الشكر والعرفان لأهمية ما قدموه من خدمات ومعونات أدعو الله أن يجزيهم عني خير الجزاء.

والله أسأل أن يوفقني ويهديني سواء السبيل.

الجامعة الأردنية ـ عمان في ٢٥ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٨٦



- ١ -
نظرة موجزة في المصادر

ليس من السهل أن نتصور أمة لم تخلف لنفسها تاريخاً مدوناً، على نحو إخباري أو سردي أو تحليلي، أو أن لا يكون لها رواة أو قصاص يتناقلون تاريخها في شكله الواقعي أو الأسطوري، ويتزيدون فيه أو ينقصون منه كيفما شاءوا؛ وحين تكون هذه الأمة ذات حضارة متميزة فإن الأمر يصبح أغرب: أمة كان لديها رسامون ونحاتون ومغنون ومغنيات: ترى بماذا كانوا يتغنون وبأية لغة؟ وأين ذهب الشعر الذي كانوا يغنونه؛ وهب أن المؤرخ لم يوجد لأسباب تتعلق بمدى شيوع الكتابة في الشؤون الحضارية فأين الشاعر الذي يمجد بطولات أمته وينظم الملاحم والقصائد في أربابها وملوكها؟

يكاد يكون هذا هو حال الأنباط: إلا إذا اعتقدنا أنهم كانوا يعدون النقوش في الصخور والمعابد والرموز الدينية وغير الدينية من تماثيل وصور ومسكوكات معالم تغني عن كتابة التاريخ أو روايته. إذ لولا العلاقات الخارجية التي دخلوا فيها مع جيرانهم لم نكد نعرف من أخبارهم شيئاً مكتوباً.

وحين ظهر الأنباط على مسرح التاريخ كانت الدولة الكبرى التي أنشأها الاسكندر المقدوني قد اقتسمها خلفاؤه، فوقعت مصر من نصيب بطلميوس، وأصبحت بلاد الشام مجالاً للصراع بين السلوقيين والبطالمة، وكانت الخطوط الفاصلة بين هاتين الدولتين في الشام تتجه شمالاً أو تنحدر

جنوباً بين كل فترة وأخرى بحسب الغلبة التي تحرزها هذه الدولة أو تلك . ويعد عام ٣١٢ ق. م. بداية التقويم السلوقي، ومن الغريب أن تتم في هذا العام نفسه أول محاولة سلوقية لإخضاع دولة الأنباط بعد أن خضع كل ما عداها من بلاد الشام للسيطرة الهلينية. وبعد سنوات أخذ البطالمة يتحرشون بالأنباط حتى انهم انتزعوا منهم لفترة ما النشاط التجاري وحولوه لمصلحتهم، وفي معرض العلاقة بين الأنباط والسلوقيين وبين الأنباط والبطالمة تتحدث عنهم المصادر التاريخية، فوصول الأخبار عنهم في الحالين لم يكن التفاتاً عامداً إلى مكانتهم ودورهم في التاريخ، وإنما كان ذلك أمراً عارضاً.

وحين قام اليهود بالثورة المكابية سنة ١٦٨ ق.م. في ولاية اليهودية واضطر الامبراطور ديمتريوس الثاني السلوقي أن يمنح اليهود الاستقلال، نشأت إلى جوار الأنباط دولة جديدة، كان لا بد أن تنشأ بينهم وبينها علاقات وتنشب أحداث؛ ومن خلال تلك الأحداث والعلاقات التي كانت ودية حيناً وعدائية حيناً آخر اضطرت المصادر إلى عدم إغفال الأنباط، ولم تقصد إلى الحديث عنهم عمداً.

تلك هي الفترة التي تعاقب على حكم ولاية اليهودية فيها حكام من أسرة الحشمونيين يعرف كل منهم بالكاهن الأعلى، وهي وظيفة دينية دنيوية معاً، يتمتع صاحبها بالحكم مدى الحياة، ويرث الحكم من بعده أحد أفراد عائلته. وكانت تلك الدولة اليهودية الواقعة إلى جنوب السامرة صغيرة المساحة، لا تتبع لها مدن الساحل الفلسطيني، وليس لها مناطق تابعة لها شرقي نهر الأردن، وقلّما كانت منطقة الجليل تابعة لها. ولكنها كانت في عصور القوة تحاول أن تسيطر على مناطق مجاورة فتتوسع على حساب الأنباط أو حساب غيرهم، وتدخل في صراع مع الأنباط، أو تتغير الظروف فتدخل في تحالف معهم، ويصبح التاريخ المدون من منظار الدولة اليهودية أو مؤرخها حكماً على الأنباط أنفسهم.

وحين جاء بومبي إلى بلاد الشام فاتحاً سنة ٦٤ ق. م. ونقل الشام من السيطرة السلوقية البطلمية إلى السيادة الرومانية، أصبح للعلاقات بالدولة الجديدة من يؤرخها - من الزاوية الرومانية، وكان للأنباط دور متفاوت الأهمية في هذه العلاقات، ورغم أن بومبي حاول تقليص اليهودية إلى أصغر حجم بلغته (ثم توسعت حدود هذه الدولة أيام هيرود الكبير وريث الد لة الحشمونية) فإن الدولتين المتجاورتين لم تلبثا أن دخلتا في صراع على نيل رضى «الدولة الأمّ» - أعني الدولة الرومانية؛ كذلك فإن علاقة الدولة النبطية بالدولة الرومانية شهدت فترات متعاقبة من المدّ والجزر إلى أن ضمت للدولة الرومانية سنة ١٠٦ ب. م؛ وفي هذا كله مجال للمؤرخ سواء أكان يكتب من الجانب اليهودي أو الجانب الروماني، فأما المؤرخ النبطي فقد غاب غيبة منقطعة. لهذا يمكننا القول إن النظرة التاريخية إلى الأنباط كانت دائماً مسلطة عليهم من الخارج.

وثمة كاتبان في الفترة الرومانية، متقاربان كثيراً في الزمن يستحقان التمييز لأنهما أوردا معلومات مهمة عن الأنباط، ورغم التقارب الزمني بينهما فقد جاءت مادتاهما التاريخيتان عن الأنباط متباعدتين زمنياً كأنما تفصل بينهما قرابة ثلاثة قرون. هذان هما المؤرخ ديودور الصقلي والجغرافي استرابو، وما ذلك إلا لاختلاف في مصدر كلّ منهما. أمّا ديودور الصقلي فقد اعتمد على تاريخ كتبه شاهد عيان اسمه هيرونيموس القاردياثي (Hieronymus of Cardia) ولذلك صوّر ديودور لنا الأنباط ووصف بعض أحوالهم وكيف كانت في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد، اعتماداً على ذلك المصدر، ولولا ذلك لما عرفنا عنهم شيئاً في فترة مبكرة نسبياً من تاريخهم. وأما استرابو فقد كان لديه مصدر متقدم أيضاً في الزمن، هو أغاثرخيدس القنيدوسي (Agatharchides of Cnidus) إلا أن أكثر اعتماده فيما يتعلق بتاريخ الأنباط على صديقين له أحدهما هو أثنودور الطرسوسي (Athenodorus of Tarsus) المتفلسف الرواقي الذي عاش (وقيل بل ولد

ونشأ) في بترا عاصمة الأنباط، وخبر حياة أهلها وعاداتهم ومعتقداتهم عن كثب، والثاني هو إيليوس غالس الذي قاد حملة مخفقة إلى اليمن (العربية السعيدة) أيام أكتافيان، وكان دليله «سلّي» وزير الدولة النبطية، وهو الذي حمّله استرابو ـ ولعل ذلك بإيحاء من صديقه غالس ودفاعاً عنه ـ وزر ذلك الاخفاق. ولهذا فإن ما احتوته جغرافيا استرابو عن الأنباط إنما يصوّر أوضاعهم في القرن الأول الميلادي. وليس لدينا معلومات تملأ الفترة القائمة بين هذين الكاتبين إلا نتف قليلة مختلطة في الدلالة وردت في سفري المكابيين. وأغزر من ذلك بكثير تلك الأخبار التي وردت لدى يوسيفوس في كتابيه «حروب اليهود» و«آثار اليهود» (Antiquities of the Jews) ولا يهتم هذا المؤرخ بالأنباط إلا من خلال علاقاتهم بالدولة الحشمونية، سلماً كانت تلك العلاقة أو حرباً. وهو متعصب كثيراً للمكابيين، ولهذا فقد يكون حديثه عن الأنباط في لحظات صراعهم مع الدولة اليهودية مشمولاً بالهوى، وثمة جانب غير مأمون فيما يقصّه من أخبار وأحداث، وذلك أنه ينصب من نفسه مفسراً للوقائع، فيحجب بتفسيره حقيقة الرواية التي قد تتحمل ـ لو رويت على وجهها ـ تفسيراً آخر أو تفسيرات أخرى، هذا إلى أنه كثيراً ما يقع في الخطأ والتضارب والتشويه، ويخلط الشائعة بالحقيقة التاريخية.

ولو وقف الأمر عند هذه المصادر، وعند مصادر كلاسيكية أخرى مثل كشاف البحر الأحمر لمؤلف مجهول (Periplus of the Erythraean Sea) وشذرات مرّت لدى بليني وأبيان وديو كاسيوس وفلوطارخس وغيرهم، لظلت جوانب كثيرة من تاريخهم وأحوالهم مظللة بالغموض، ولكن الكشوف الحديثة التي أثارت كثيراً مما خلفوه من نقوش وآثار قد أنارت بعض تلك الجوانب، فقد وجدت لهم نقوش كثيرة في مختلف المناطق التي عمروها أو بلغوها بتجارتهم دلّت على نوع كتابتهم ولغتهم وأسماء الأعلام الشائعة بينهم وأسماء الأرباب التي عبدوها وأسماء عدد من ملوكهم وملكاتهم وبعض شعائرهم الدينية وغير ذلك من الأمور. ويمكن أن نميز في

نقوشهم النماذج التالية:

١ ـ نقوش تذكارية قصيرة كالتي وجدت في بترا والحجر وسيناء وهي نادرة في حوران مثل: «هانيء بن نثير بن عاتم» (ليتمان رقم: ٤٦) ولعلّ من هذا القبيل نقشاً قصيراً نصّه: «موثب. سلام» (رقم ٤٥).

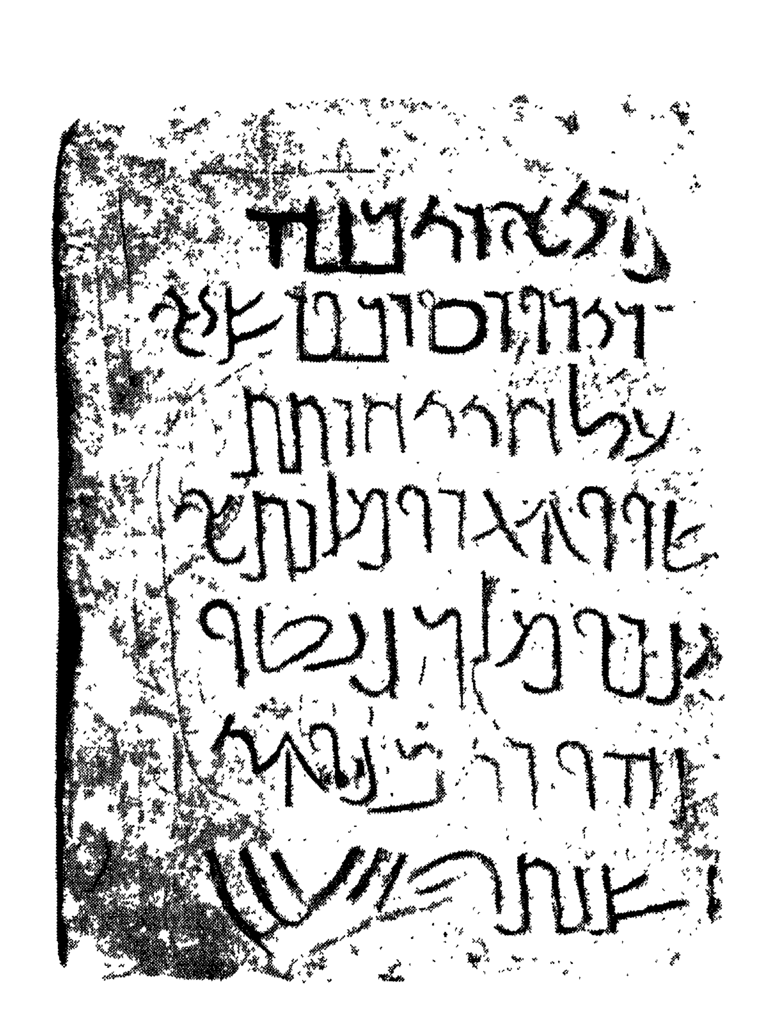
٢ ـ نقوش دفن وهي نوعان: نوع ترد فيه كلمة «قبر» أو ما يناظرها، ونوع لا يرد فيه سوى اسم المقبور. واللفظة التي تقابل «قبر» هي «قبرا» أو «قبرتا» أو «نفشا».

٣ ـ نقوش معمارية يذكر فيها اسم المبنَى والباني والتاريخ غالباً وأحياناً يحذف ذكر المبنى لشهرته. ومن أمثلة ذلك «هـذا هو المَقْـدَسُ الـذي صنعـه ن. ن. بـن بدرالله» (رقـم: ٧١) أو مثـل «هـذا هو الحائـط الذي... والنوافذ التي بناهـا تيم بن... لذي الشرى وسائـر آلهـة بصرى» (رقم: ٦٩).

٤ ـ نقوش وقفية: يذكر فيها اسم الواقف والشيء الموقوف واسم الإله (أو الإلاهة) الذي من أجله قدم ذلك الوقف، مثال ذلك: «هذا هو حجر العبادة الذي قدمه باهكورو بن أوس للات ربة المكان» (رقم: ٢٤).

٥ ـ نقوش تكريمية: وهي نادرة عند الأنباط وقد وجد منها نقش واحد في نقوش جنوبي حوران (رقم: ١٠١ عنـد ليتمان) جاء فيه: «في السنـة الثالثـة والثلاثـين من حكـم سيدنـا فيليب صنـع وتر بـن بدر بـن قاصيو بن سوداي وحن ايل بن مسك ايل ومنع بن جرم هذا المذبح لتمثال جالس بن بنت... أنعم بن عصب هو النحات. سلام».

٦ ـ نقوش تمثل توقيعات البنائين أو توقيعات تدل على الملكية: ففي النقش السابق ذكر توقيع النحات أنعم بن عصب. وجاء في النقش (رقم: ١٠٥) «حور بن عبيشت هو الصانع أو (الفنان) (أ م ن ا)» وجاء في النقش (رقـم: ٧٢) «ذ ن هـ ه م ح ر م ت م ر ا ل م ل ك» أي



الشكل (١)

نموذج من نقش نبطي يعود إلى السنة ٢٨ ب.م. أي عهد حارثة الرابع .

«هذا هو المكان المحفوظ لمرء الملك (أو لسيدنا مالك)».

ومن الواضح أن هذه النقوش ـ على كثرتها ـ لا تتحدث عن أحداث تاريخية، أو هي لغلبة اللون التذكاري القصير الذي يكتفى فيه بذكر الاسم لا تفيد شيئاً سوى مزيد من أسماء الأعلام. ولهذا يجب أن نستعين بآثار أخرى لتجلية بعض الجوانب التي لا تتناولها النقوش أحياناً؛ وللمسكوكات دور هام في هذا الجانب. فأما الآثار التي خلفوها من هياكل وقبور وتماثيل ورسوم وخزف ومصنوعات معدنية في المواقع المختلفة مثل بترا وخربة تنور والشيخ براك وسيعا وغيرها فإنها هي التي أضافت معرفة أدقّ من ذي قبل عن معتقداتهم وما بلغوه من مستويات صناعية وتقننية ومهارة معمارية.

أما الدراسات الحديثة عن الأنباط ـ على شكل كتب أو بحوث ـ فيمكن أن يقال فيها: إنها غزيرة وفيرة بحق؛ وقد اتصلت هذه الدراسات اتصالاً وثيقاً بالجهود التي بذلت ـ على مر الزمن ـ وما تزال تبذل في الكشف عن الآثار، وفي تتابع البعثات للحفر والتنقيب، وقبل سنة ١٩٢٩ كانت المعلومات عن بترا بالذات لا تتجاوز مشاهدات الرحالة الذين زاروها؛ أما في ذلك العام فقد بدأت الجهود الأثرية على يد بعثة يرئسها جورج هورسفيلد، ثم تتابعت البعثات، فكشف البرايت عن «معلاة كونواي» سنة ١٩٣٤ وعن خزنة فرعون وقبر الجرة وقبر الجندي الروماني سنة ١٩٣٦. وفي سنة ١٩٥٤ بدأت دائرة الآثار الأردنية القيام بأعمال حفظ وصيانة على طول وادي موسى تحت إشراف بيتر بار. ويطول بي القول لو أردت تتبع هذه الجهود منذ ذلك التاريخ حتى اليوم، ولكن لا بد من التنويه بجهود دائرة الآثار الأردنية وجهود اثنين من الباحثين الأردنيين المرموقين وهما: الدكتور نبيل خيري والدكتور فوزي زيادين.

على ضوء هذه الكشوف المتتابعة كتبت دراسات وتقارير كثيرة ظهرت

ولاءً، ويرى القارىء في قائمة المصادر والمراجع أسماء أهم الكتب وأهم البحوث التي صدرت في هذا المجال؛ فقد أثبت في تلك القائمة ما أفدت منه مادة هذا الكتاب، وأغفلت ذكر كثير مما قرأته من بحوث لأنه يعنى بأمور فنية دقيقة، لا تتحملها طبيعة هذه الدراسة. ولا بدّ من الاعتراف هنا بأنه كان لكشف نلسون غلوك عن معبد خربة تنور، وعن تتبعه لمواقع الخزف النبطي أكبر دور في إدخال الدراسات النبطية ضمن مرحلة جديدة. وأنا على يقين من أن الدراسات عن الأنباط وآثارهم وتاريخهم ودينهم ومظاهر حضارتهم بعامة لن تتوقف، وأن كشوفاً جديدة ستكون كفيلة بسدّ ثغرات ما تزال قائمة، وبتصحيح فروض واستنتاجات سابقة، وبتعريفنا بكثير مما نجهله عن قوم بلغوا شأواً بعيداً في الحضارة وأسهموا بقسط غير قليل في تشييد صرحها.

- ٢ -

مشكلات تنتظر حلاً

مع أن الأنباط عاشوا على المشارف الشمالية من الحجاز فليس لهم أيّ ذكر في مصادرنا العربية التي تحدثت عمّا قبل الإسلام، بغض النظر عن كونهم عرباً أو غير عرب، وهذا شيء مستغرب حقاً. نعم عرف العرب في الفتوحات الإسلامية وفيما قبلها وفيما بعدها أن من يدعون النبط هم أهل سواد العراق على وجه الخصوص، أو السكان الأصليون في الشام والعراق على وجه العموم[1]، وعرفوا أنهم حاذقون في الزراعة وعمارة الأرضين وفي استنباط المياه واستخراج المعادن، وأن لهم لغة خاصة بهم هي النبطية (أي الآرامية أو السريانية) وكل هذه الخصائص التي ذكرت تنطبق على أنباط بترا[2]، ولكن لا يذهبنّ بنا الظنّ إلى أن العرب شملوا بهذه الصفات أنباط بترا أو عرفوا موقعهم من التاريخ أو تعرفوا إلى مآثرهم الحضارية، وأكبر الظن أن من أطلق عليهم العرب اسم نبط أو نبيط من سكان بلاد الشام الأصليين كانوا يشتملون على عناصر من أنباط بترا، كانت قد ذابت أو صهرت داخل المجموعة الكبيرة من أولئك السكان، ولعلّ هذا نفسه أحد الأسباب التي أدّتْ إلى جهل العرب بأنباط بترا وبدولتهم وبكل ما يتعلق

---

(١) قال ياقوت: وأما النبطي فكل من لم يكن راعياً أو جندياً من ساكني الأرض فهو نبطي.

(٢) بترا هو الاسم الذي يطلقه الكتاب الكلاسيكيون على عاصمة الأنباط، ومعناه الصخرة. ويربط بعضهم بينه وبين لفظة «سلع» ـ وتعني الصخرة أيضاً. ولكن ورد في النقوش وغيرها ما يدل على أن «الرقيم» هو الاسم العربي لتلك المدينة، وسيرد بيان ذلك فيما يلي.

بهم. فأنت إذا استثنيت بعض أخبار جنوب الجزيرة التي حفظها أهلها أنفسهم فعرفها لذلك عرب الشمال، وجدت أن الأنباط لم يكن حظهم حظَّ أهل الجنوب، لأنهم كانوا قد فقدوا هويتهم كاملة عند يقظة أهل الشمال ـ وبخاصة أهل مكة والمدينة ـ على أخبار الأمم من حولهم، وربما لم يتم ذلك قبل القرن الرابع الميلادي، حين لم يكن لا للدولة النبطية ولا للهوية النبطية أي وجود. ولم يكن هذا حظَّ الأنباط وحدهم، بل إن الأمم التي كتبت في الشمال بخط غير الخط العربي كالصفويين واللحيانيين لا يعرف عرب الحجاز عنهم شيئاً ذا بال، اللهم إلاّ أن يكونوا قد ذكروا تحت أسماء أخرى، ومثل ذلك يقال أيضاً في أنباط بترا أعني لعلّ العرب عرفوهم باسم آخر. إذ ان تسميتهم باسم الأنباط إنما مصدرها نقوشهم التي كان يجهلها عرب الحجاز، والصيغة التي تتردد في تلك النقوش هي «نبطو» ومنهم ومن المطلعين على أخبارهم من مجاوريهم إلى الشمال والغرب درجت هذه التسمية في المصادر الكلاسيكية ولم تنتشر إلى الجنوب، إذ يبدو لي أن عرب الجنوب أنفسهم الحريصين على التدوين لم يذكروا اسم النبط في رقمهم المنقوشة، مع أن الأنباط كانوا على الدوام يعاملونهم تجارياً، نعم عرف العرب الجنوبيون (ن ب ط) لقباً لشخص، و (ن ب ط ك ر ب) علماً على آخر، أو (ن ب ط م) اسماً لعلم أيضاً، ولكنهم لم يعرفوا قوماً بهذا الاسم، مما قد يرجح الافتراض بأن يكون أنباط بترا قد عرفوا باسم آخر ترجيحاً قوياً.

وقد خلقت كلمة «نبط» إيحاءات مختلفة بعرضها على ألفاظ مقاربة لها في النطق، فمن الباحثين من ربط بينها وبين لفظة «نبايوت» التي وردت في العهد القديم، ونبايوت هذا هو بكر إسماعيل (التكوين ٢٥ : ١٣) ومنهم من قرنها بلفظة «النبياتيين» و «النبأيتي» التي وردت في مدونات تغلث فلاسر الثالث، ثم في مدونات أسرحادون، ومن بعد لدى أشور بانيبال، (ويبدو أن اللفظة تشير إلى قبيلة آرامية كانت تعيش في القرن الثامن

ق. م. على ضفاف الفرات، ولعلها هي نفس القبيلة التي ثارت على آشور بانيبال).

ويعتمد الذين ينكرون الصلة بين نبط ونبايوت أو نبأيتي على أن تحول التاء إلى طاء لا يتم بهذه السهولة، وأن جذر الكلمة في المدونات الآشورية والعهد القديم هو «ن ب ي» وأن الزيادة في الكلمة لاحقة تصريفية. ويردّ الذين يرون تلك الصلة محتملة بأن تحول التاء إلى طاء، أمر ممكن بنقل التركيز في النطق من نباتو إلى نبطو وأن تركيب الكلمتين متماثل، وينفون أن يكون الجذر هو «ن ب ي» لأسباب نابعة من دراسة دقيقة لتراكيب اللفظ في الآشورية[1]، وأنا أميل إلى ترجيح عدم وجود صلة بين المذكورين في العهد القديم والمدونات الآشورية وبين الأنباط أصحاب الدولة التي عرفت عاصمتها باسم بترا.

ويقرن بالأنباط ـ عادةً ـ شعبان هما الايدوميون (أو الأدوميون)[2] وبنو قيدار، وقد كانت بلاد الايدوميين منطقة يمثّل حدها الشرقي ـ على وجه التقريب ـ خطٌّ ما أصبح يسمى «طريق الحج» من دمشق إلى مكة، وربما كان وادي العريش هو حدها الغربي. أما جنوباً فقد كانت المنطقة تمتد حتى رأس خليج العقبة، ويقف حدها الشمالي عند النهير المسمّى اليوم وادي الأحسى، وهو يجري إلى الشمال الغربي مخترقاً غور الصافية (الصافي) ويصب في الطرف الجنوبي من البحر الميت؛ فهي بهذا التحديد تتكون من جزء جبلي غربي واقع إلى الجنوب من ولاية اليهودية، ومن العربة، ومن سلسلة شرقية.

---

(١) انظر المقالة الأولى في المصادر ففيها تصوير للخلاف بين فريقين من الدارسين وفيها ذكر لأسماء بعضهم.

(٢) كان أخي وصديقي الدكتور محمود الغول رحمه الله يربط بين «أدوم» و «جذام»، لما يتجاوز الشبه اللفظي، ولو صحّ هذا التقدير لكانت جذام من أقدم القبائل العربية التي انتشرت في تلك المنطقة.

ويرى بعض الدارسين أن نبونيدس (أو نبو نعيد حسب اللفظ الآشوري) هو الذي قضى على دولة الايدوميين في حملته التي قام بها سنة ٥٥٢ق.م. مستهدفاً جنوبي الأردن وشمالي الجزيرة العربية، وقد جاء فيما دونه عن هذه الحملة: «ضد المدينة أدومو نصبت المعسكرات» ويبدو من سياق النصّ أنه قضى على عاصمتهم بوصيرة (بُصْرة) في المنطقة الواقعة شرقي الأردن وعلى تل الخليفة، وضرب تجارتهم التي كانت تمتد جنوباً حتى ديدان وشرقاً حتى تيماء، ومن ثمّ صيرهم ضعافاً لا يستطيعون صدّ أي غزاة جدد، ولكن السيطرة البابلية كانت قصيرة الأمد، وربما خلفتها السيطرة الفارسية، وإن كنا لا نملك عنها إلا معلومات يسيرة جداً، فعندما غزا قمبيز مصر سنة ٥٢٥ق.م. بعث سفيراً إلى ملك العرب يسأله أن يزوده بأدلاء يسلكون به سبيل السلامة عبر الصحراء بين فلسطين ومصر.

ذلك هو حال إيدوم؛ أما بنو قيدار فالحديث عنهم يجب أن يتخذ مدخلاً مغايراً بادئاً بالجزئيات؛ وبيان ذلك أنه ورد ذكر لملك عربي اسمه جشم في سفر نحميا (٢ : ١٠) كما ورد ذكر لجشم والد قينو في طاسة وجدت بتل المسخوطة، وهذا الثاني كان ملكاً لقيدار. بينما يختفي اسم ايدوم من سفري عزرا ونحميا اختفاء تاماً، ولهذا الأمر دلالة على أن ايدوم لم تكن دولة حينئذ. ومثل هذا الوضع دعا بعض الباحثين إلى القول بأن ايدوم كانت قد سقطت أيام نحميا في يد جشم، وهذا الملك ـ في رأي الكثيرين ـ هو والد قينو ملك قيدار الذي قدّم تلك الطاسة في تل المسخوطة، ومن دراسة رموزها وطبيعة خطها يمكن أن تردّ إلى حوالى ٤٠٠ ق. م. وإذا كان ذلك كذلك فإن العرب الذين كان يحكمهم جشم هم عرب بني قيدار الذين ظهروا لأول مرة في القرن السابع وأنزل نبوخذ نصر بهم الهزيمة: «على قيدار وممالك حاصور التي ضربها نبوكد رصرّ (نبوخذ نصر) ملك بابل، هكذا قال الرب: قوموا اصعدوا إلى قيدار وحرروا أبناء المشرق...» (إرميا: ٤٩ : ٢٩). هؤلاء القيداريون ـ مهما

تكن مواطنهم في البداية ـ قد امتدوا إلى ديدان واستولوا على ايدوم ـ كما تقدم ـ ولعلهم هم الذين ساعدوا قمبيز في زحفه على مصر. وفي أيام نحميا كانت دولتهم تمتد من العلا جنوباً حتى لاخيش (القبيبة) وتل الخليفة وتل الفرعة وعين جدي، إلا أن حدودهم خلال القرون لم تكن ثابتةً وإنما كان نفوذهم يتقلص أو يمتد حسب الظروف المحيطة بهم. وكل هذا يعني أن الحِجْرَ كان داخلاً في منطقتهم؛ فهل يمكن أن نوحّد بين بني قيدار وأصحاب الحجر الذين ذكرهم القرآن الكريم؟ قد يصحّ هذا لو استطعنا أن نثبت أن بني قيدار هم أنفسهم ثمود الذين ورد ذكرهم في القرآن وهذا ليس بالأمر السهل، ولكن إذا تذكرنا أن اسم عاقر الناقة ـ ناقة صالح ـ كان اسمه لدى المفسرين «قدار» (وهو صورة أخرى من قيدار) لم نبعد كثيراً في الظن إذا افترضنا أن روايات المفسرين وضعت اسم الشخص موضع اسم القبيلة، وأن الذين عقروا الناقة هم بنو قدار (أو قيدار)، وأن هؤلاء الناس هم فرع من ثمود، لا أعني أنهم فرع بالنسب وإنما كانوا وحدة من حلف كبير اسمه «ثمود»، وهذا الحلف كانت وحداته تتغير مع الزمن، فبعد الحلف الذي أخذته الصيحةُ في الحِجْر، تظهر ثمود في الأخبار التاريخية مرة أخرى أو مرّات حتى لنجد إشاراتٍ إليها في النقوش النبطية واليونانية الواصلة إلينا من القرن الثاني بعد الميلاد.

على هذا ـ إن صحّ ـ يكون القيداريون أو أعضاء الحلف الثمودي هم الذين جابوا الصخر بالواد، أي في الحِجْر، ولفظة «جاب» تعني خرق الصخر، واتخذه بيوتاً، وفي غير موضع من القرآن الكريم عبّر عن هذه الظاهرة بأنهم كانوا ينحتون من الجبال بيوتاً (الأعراف: ٧٤ والشعراء: ١٤٩ والحجر: ٨٢). وهي صورة ما تعرضه الحجر ومدائن صالح لعيني المشاهد. ولكن علينا أن نتذكر أيضاً أن هذه الصورة نفسها تتمثل في بترا، وأن لفظة «الواد» أدق في الدلالة على بترا منها على الحجر. وهذا يعني أن الأنباط حين بدأ دورهم على مسرح التاريخ ورثوا حضارتين أو كانوا امتداداً

لها : حضارة إيدوم أولاً ثم حضارة قيدار.

وما نرانا نبعد في الظن إذا قدرنا أنهم كانوا أحد أعضاء الحلف الثمودي، فإن لم يكونوا كذلك فقد كانوا احدى الموجات البدوية التي تدفقت على منطقة كانت موطناً لايدوم ثم لقيدار (وكانت إيدوم من حيث هي دولة قد أختفت منذ عهد بعيد) فورث الأنباط جل مواطن قيدار وسيادتها وهي مقاربة من حيث الرقعة الجغرافية لمنطقة إيدوم.

وتدل الشواهد المستمدة من الحفريات في أم البيارة (عند بترا) وفي طويلان وبوصيرة (بصرة) على وجود جماعات إيدومية كانت مستقرة هناك من القرن السابع قبل الميلاد. بل إن وجود استيطان إيدومي في أم البيارة قد يعود إلى القرن الثامن، إذ اكتشفت فوق أم البيارة قلعة إيدومية قدّر أنها تعود إلى ذلك التاريخ المبكر، كما أن هناك آلافاً من الكسر الفخارية الايدومية في طويلان إلى الشمال الشرقي من قرية الجي، وهي قد تعود إلى الفترة الواقعة بين القرنين العاشر والسادس قبل الميلاد، وطويلان هذه كانت ـ فيما يبدو ـ أعظم مركز إيدومي في منطقة بترا.

ومن ثم يمكننا أن نقول إما أن الأنباط، اضطروا الايدوميين إلى الانحسار عن بعض المناطق وحلوا محلهم فيها، وإما أنهم ساكنوهم في ديارهم أول الأمر، ثم لما تمّ التزاوج بين الفريقين ذابت العناصر الأيدومية مع الزمن. وسنتحدث في فصل تال عن طريقة توسع الأنباط وامتدادهم في المنطقة التي حكموها، ولكن يكفي هنا أن نقول إن الايدوميين بنوا قلاعاً كثيرة ورثها الأنباط، وكانت لهم آلهة خصب اقتبسها الأنباط عنهم، ومهروا في شؤون الزراعة وحذا الأنباط حذوهم في هذا المجال، واستعملوا اللغة الآرامية في كتاباتهم، وكذلك فعل الأنباط أيضاً.

ولقد حدّد الذين يعتقدون أن الأنباط والنبايوت لفظتان تعنيان مسمّى واحداً المنطقة التي عاش فيها هؤلاء بقولهم إنها منطقة تحدها جبال

إيدوم من الغرب وهضبة حسمى بن الجنوب الغربي وتيماء إلى الجنوب والنفود إلى الشرق ووادي السرحان إلى الشمال الشرقي،ولكن علماء آخرين حين يتحدثون عن أصل الأنباط لا يرون هذا الرأي؛ نعم إن آراء جميع الباحثين في تعيين الموطن الأصلي للأنباط متفقة على شيء واحد وهو تحديدهم للمنطقة الكبرى التي كانت منبتهم أي الجزيرة العربية، غير أن آراءهم تفترق حول تحديد الناحية المعنية من تلك الجزيرة: هل هي الحجاز، أو جنوبي منطقة الجوف، أو منطقة الخليج، أو جنوبي الجزيرة العربية. ويؤيد أصحاب القول الأخير رأيهم بأن بين الأنباط وأهل اليمن عنصراً هاماً مشتركاً وهو طرق تخزين الماء وأساليب الريّ والمهارة الزراعية بعامة، ولكن مما يردُّ على هذا القول أن الأنباط في المراحل الأولى لم يكونوا يحسنون هذه الأمور بل كانوا حتى أواخر القرن الرابع ـ بشهادة ديودور الصقلي أو المصدر الذي يعتمده ـ أقرب إلى البداوة. وإذن فإن اتقان الرّي وطرق الزراعة مما يمثل مرحلة تالية، اكتسب فيها الأنباط تلك المهارة، ولا يستبعد أن يكونوا قد اقتبسوا ذلك عن عرب الجنوب. أما القائلون بغير هذا الرأي فإن لهم وجهات نظر أخرى وآراء يسندونها بأدلة استنتاجية وقد يطول بنا القول لو تصدينا لها، وكل ما في الأمر أن ليس في المسألة شيء حاسم، ولأجل ذلك كله سيظل القول في أصل الأنباط قائماً على التخمين، وسنظل نجهل متى احتلوا منطقة بترا (أي الصخرة) ما دام أقدم أخبارهم لا يتجاوز أواخر القرن الرابع إلى ما قبله.

وليس السؤال عن السبب الذي حداهم لسكنى تلك المنطقة بأحسن حالاً من السؤالين السابقين (أعني السؤال عن هوية الأنباط وعن أصلهم)، إلا أننا نستطيع أن نفترض بأن حاجة قطعانهم إلى المرعى والماء هدتهم إلى ذلك المكان، ورويداً رويداً وجدوا في الاستقرار وفي طبيعة المكان نفسه حماية لأنفسهم ولقطعانهم، ثم اكتشفوا بعد ذلك صلاحية المكان للتجارة ولاستقبال السلع من جهات مختلفة، وتفتحت عيونهم على

بريق الثراء، وحين أحرزوا كل ذلك لم يطلبوا عن ذلك المكان تحولاً.

ثم إنهم لما بدأوا هم أنفسهم يتاجرون، ولم يعودوا نَقَلَةً لمتاجر غيرهم مقابل أجر معلوم، اكتشفوا حاجتهم الماسة إلى الكتابة، وكانت اللغة السائدة في كل أنواع المعاملات والسفارات في بلاد الشرق الأدنى يومئذ هي الآرامية، فكتبوا بها، وظلوا يستعملون لغتهم العربية في حياتهم اليومية فيما بينهم، وهي تشترك مع العربية الشمالية في ظواهر كثيرة، ولكن العربية الشمالية لم تكن يومئذ لغة مكتوبة، أعني لم تكن قد اشتقت لها أبجدية محددة الرموز، إذ يكاد الباحثون يتفقون على أن الحرف العربي إنما اشتق من الحرف النبطي[1]، ولعلّ تعرفهم على الكتابة لم يكن قبل النصف الثاني من القرن الرابع قبل الميلاد، إذ ان أقدم تاريخ استعملوه هو سنة ٣١٢ وهو بداية التقويم السلوقي، وذلك موافق للعام الذي غزاهم فيه الجيش السلوقي، ومعنى ذلك أنه لم تكن لديهم قبل ذلك أحداثٌ هامّة يؤرخون بها، حتى إذا ضربوا في الحضارة بسهم أخذوا يؤرخون بسنوات حكم كل ملك من ملوكهم، فلما تعرفوا إلى الرومان استعملوا أيضاً التأريخ بسنوات حكم القياصرة أو بسنوات حكم القناصل، كما أرخوا ببداية الفتح الروماني لسورية على يد بومبي (وذلك هو شهر تشرين الأول/ أكتوبر) سنة ٦٣.

وقد كان اختيارهم للآرامية ضرورة حضارية ووسيلة عملية للتفاهم مع من حولهم ممن يستعملونها في مكاتباتهم[2]، وظلت هي لغة الكتابة بعد

---

(١) في تطوّر الخط العربي عن الخط النبطي انظر: الكتابة العربية والسامية للدكتور رمزي بعلبكي (بيروت ١٩٨١) وخاصة صفحة ١٧١ وما بعدها، حيث تحدث عن الخصائص المشتركة بين الخطين.

(٢) لم تكن الآرامية وسيلتهم للتفاهم مع الفئات غير العربية وحسب، بل كانت وسيلتهم كذلك للتفاهم مع الصفويين الموجودين إلى الشمال وإلى الجنوب من منطقتهم، إذ لم تكن بين تلك القبائل لغة «عربية مشتركة».

أن سقطت دولتهم لمدة مائتي سنة، ثم نسوها وبدأوا يكتبون العربية بحروف آرامية. غير أن اللغة الآرامية التي استعملوها لم تكن دائماً آرامية خالصة، وذلك يتضح بخاصة في النقوش المتأخرة، وربما اقترن ذلك بسببين: أولهما أن سيطرة العربية المحكية لديهم كانت سبباً في تسرب الصيغ والألفاظ العربية إلى نقوشهم، والثاني: ما دامت سيطرة العربية تبدو قوية في النقوش المتأخرة فربما نشأ ذلك عن تدفّق عناصر بدوية جديدة دخلت في المجتمع النبطي واختلطت بالأنباط، وبخاصة بعد انهيار دولتهم.

إن استعمال الآرامية في المكاتبات لا يمكن أن يكون دليلاً على أن الأنباط لم يكونوا عرباً، ومع ذلك فقد نجد بين الدارسين المحدثين من ينكرون عروبة الأنباط، ولكن الأكثرية منهم مجمعة على أنهم كانوا عرباً: لأنهم عبدوا آلهة عبدها عرب الشمال مثل اللات والعزى ومناة وذي الشرى، كما أن المؤرخين الكلاسيكيين ـ ومعهم يوسيفوس ـ يسمونهم عرباً ويجعلون هذه اللفظة ـ في كثير من المواضع ـ بديلاً مرادفاً للفظة «نبط»؛ صحيح إنهم تأثروا بالحضارات من حولهم: البارثية (الفرتية/الفارسية) والآرامية والهلينية، وعرف بعضهم اليونانية واللاتينية، وخالطوا غيرهم بالزواج المتبادل، ولكن كل هذا إنما يمثل مرحلة حضارية لاحقة، ولا يصحّ أن يتخذ دليلاً على الأصل العرقي.

ومما يقوي القول بعروبة الأنباط أن معظم أسمائهم عربية (٩٠٪ منها) وقد أبرزت النقوش صنفين من تلك الأسماء يشترك فيها المذكر والمؤنث:

١ ـ الصنف الأول أسماء تعني صفات مجردة مثل حبو (حب) وخلدو (خلد أي بقاء الشباب) وحنّو (حنان) وحسنو (حسن) ولطفو (لطف) وملحو (ملاحة)، وقد كانت إحدى ملكات الأنباط وهي زوجة حارثة الرابع تدعى حنو.

٢ ـ الصنف الثاني أسماء تدل على خصائص مادية وأكثرها على وزن أفعل (ومؤنثه فعلاء في العربية) مثل أنيب (كبير الناب) أرأس (كبير الرأس) أسود، أشعر، أشيب، وهذه الصيغ تدلّ على المذكر والمؤنث معاً في النبطية (أي ليس هناك فعلاء).

ومن أسمائهم في النقوش النبطية التي وجدت بمصر: حنظلة وذؤيب وشبرمة، كما ورد اسم «أحمد» في تلك النقوش. ويعد الاسم «زبودو» من أشيع أسمائهم في نقوش جنوبي حوران. ومن الملاحظ أن بعض الأسماء تشيع في منطقة نبطية دون أخرى، فمثلاً تشترك سيناء والحجر في ١٤ اسماً، وسيناء وبترا في ٣٣ اسماً، وسيناء وحوران في تسعة، ولا تشترك المناطق كلها إلا في ١٣ اسماً بينها الأسماء الملكية (وهذا اعتماداً على مجموعة النقوش التي نشرت سنة ١٨٩٩ ولذلك فإنه قابل للتغيّر في ظلٍّ ما استجدّ ويستجد من كشوف). وقلَّ أن نجد في أسمائهم ما ليس له أصل في العربية، وهذا هو أقوى برهان على عروبتهم عند القائلين بذلك، وهو برهان ألحَّ عليه نولدكه وتابعه في ذلك ليتمان. وقد نجد بعض أسماء يونانية ولاتينية مثل يوليوس ودوميتيوس وثيودوسيوس وروفس وكزماس، وأصحاب هذه الأسماء قد يكونون من الغرباء المقيمين في بلاد الأنباط أو من الأنباط أنفسهم، وأقلّ من ذلك الأسماء العبرية مثل: ناثان ومنشا ودانيال، والمسمون بها كانوا يهوداً، كما أن الصلات بينهم وبين مصر نقلت إليهم عبادة إيزيس الربة المصرية، فتسمى بعضهم بأسماء مضافة إلى إيزيس مثل عبد إيزيس فأما الأسماء الفارسية والآرامية فهي نادرة بينهم.

ويبقى بعد ذلك سؤال كبير هو: كيف استطاع هؤلاء البدو أن يتحولوا من حالة بداوة إلى وضع زراعي وتجاري وأن يبلغوا مستوى في الفنون رفيعاً؟ قد نحشد هنا تعليلات مختلفة، بعضها يتصل بحيوية خاصة منحها ذلك الشعب، وبعضها يحيل السائل على قوة المؤثرات الحضارية التي أحاطت بهم، وربما قيل إن تلك النقلة لم تحدث خلال وقت قصير

وإنما استغرقت ما يقرب من ثلاثة قرون حتى اكتملت لهـا أسبابهـا، هي القرون الفاصلة بين رؤية ديودور ورؤية استرابـو، ولكن مهما نحشد من تعليلات تظل الظاهرة في ذاتها مبعث دهشة وتأمل وإعجاب.



ـ ٣ ـ
بدايات تاريخية

إذا كانت بداية ظهور الأنباط لاحتلال مواطن الايدوميين في حدود القرن السادس ، فإن الظلام يحيط بحوالي ثلاثة قرون من بداية تاريخهم ، إذ ليس لدينا حتى اليوم أخبار عنهم قبل ما أورده ديودور الصقلي ، وهو يعرض لهم في أواخر القرن الرابع ، حين بدأ احتكاكهم بالسلوقيين ، ومما قاله هذا المؤرخ في وصف أحوالهم :

«لقد آلوا على أنفسهم ألا يبذروا حباً ، ولا يغرسوا شجراً يؤتي ثمراً ، ولا يعاقروا خمرة ، ولا يشيدوا بيتاً ، ومن فعل ذلك كان عقابه الموت ، وهم يلتزمون بهذه المبادىء لأنهم يعتقدون أن من تملك شيئاً استمرأ ما ملك (وعزّ عليه التخلي عنه) واضطر من أجل ذلك أن ينصاع لما يفرضه عليه ذوو القوة والجبروت» (١٠ : ٨٧) .

وهذا الذي يقوله ديودور يعني أنهم كانوا حتى أواخر القرن الرابع ق . م . ما يزالون متمسكين بحياة البداوة ، فهم يجافون كلّ ما يؤدي إلى الاستقرار كبناء البيوت وممارسة الزراعة ، ويؤكدون انتماءهم إلى ذلك « الزهد » الفطري (أو الشعائري) الذي يباعد بين صاحبه وبين شرب الخمر ، ويقرنون بين تلك البداوة وبين النفور من كل ما يضعف فيهم روح الحرية ، ويؤدي إلى قبول سيطرة الأقوياء . ومع ذلك فإنهم ـ فيما يبدو ـ لم يقنعوا بتربية الإبل والماشية ، ولا اقتصروا على حياة الرعي ، بل

كانوا قد تميزوا عن كثير من البدو فيما نتصوّر ، بالإقبال على حياة التجارة ، شراءً وبيعاً ، وعلى القيام بدور الوسطاء في دنيا البيع والشراء حتى عرفوا بالثراء ، وهذا ما يؤكده قول ديودور الصقلي :

« ثمة قبائل عربية كثيرة تتخذ الصحراء مراعي لقطعانها ، ولكن الأنباط يفوقون الجميع بثرائهم » (١٠ : ٨٩) .

وكل ذلك يفيد أنهم كانوا حينئذ قد عرفوا نوعاً من الاستقرار ، وإن لم يكن هو الاستقرار الزراعي الذي يربط أصحابه بالأرض ربطاً وثيقاً .

وذلك الثراء الذي يتحدث عنه ديودور هو الذي أغرى أنتيغونس أحد قادة الإسكندر بالتحرش بهم ومهاجمتهم ، لا ليستولي على ما كنزوه من أموال وحسب ، بل ليستولي على مصادر الثروة وينزعها من أيديهم أيضاً ، محققاً بذلك أمنية طامحة هي أن يوسّع أملاكه التي كانت تضم حينئذ سورية وفينيقيا . ولبلوغ ذلك قام بمحاولتين :

كانت الأولى منهما سنة ٣١٢ ق.م. ، إذ أرسل أنتيغونس قائده أثنايوس « إلى بلاد العرب الذين يدعون الأنباط » على رأس جيش يضمّ أربعة آلاف من المشاة وستمائة من الفرسان لمباغتتهم ، فقد علم أثنايوس أنه كان من عادة أولئك العرب أن يحتفلوا بعيد لهم كل عام ، وأثناء ذلك يودعون مقتنياتهم ويجمعون شيوخهم ونساءهم وأطفالهم على صخرة منيعة وإن لم تكن ذات سور ، فتربص بهم القائد اليوناني حتى انهمكوا في عيدهم ، وزحف إليهم فبلغ الصخرة ليلاً ، وأخذ من عليها على حين غرة ، فقتل وأسر ، واستولى على كمية غير قليلة من البخور والمرّ والفضة وانصرف قبل الفجر مُغِذّاً السير غرباً . ولكن سرعان ما أصيب الجند بالإعياء ، فاستسلموا إلى الغفلة وقلة الحذر وخيموا يستريحون مطمئنين إلى أنهم أصبحوا بمنأى عن مطاردة الأنباط لهم .

« وبينما كان رجال أثنايوس في مخيمهم ، لا يعيرون

العدو اهتماماً، وقد استغرقوا في النوم بسبب إعيائهم ، تسلل بعض الأسرى خفية وعادوا فأخبروا قومهم بحال عدوّهم وأنهم غارّون في نومهم . فجمع الأنباط من أنفسهم ما لا يقل عن ثمانية آلاف رجل وهاجموا المعسكر اليوناني في الهزيع الأخير من الليل ، فذبحوا معظم جند العدو حيث كانوا يرقدون ، وقتلوا من تبقى منهم طعناً برماحهم حين استيقظوا واثبين إلى السلاح دفاعاً عن أنفسهم . وكانت النتيجة أن ذبح جميع المشاة ونجا من الفرسان قرابة خمسين معظمهم مثخن بالجراح » (١٠ : ٩٣) .

لم يقنع الأنباط بهذا النصر حين عادوا إلى مدينتهم ، بل حاولوا تبرئة ساحتهم لدى أنتيغونس ، فكتبوا له رسالة « بخط سرياني » يوجهون فيها التهمة إلى أثنايوس ، وكأنهم بذلك يوحون إلى أنتيغونس أن قائده تصرّف بوحي من نفسه لا بأمر من سيده ، فتلقى أنتيغونس هذا الايحاء بالقبول ، وردّ قائلاً إن أثنايوس تصرف حقاً بما يخالف توصيات أنتيغونس وتعليماته ، ورضي الأنباط بهذا الردّ ، ولكنهم أصبحوا أكثر حيطة إذ بثوا الربايا[1] والحماة على المراقب والتلال ، تخوفاً من مفاجأة أخرى .

ورضي أنتيغونس نفسه عن ردّه ، لأنه يكفل إخلاد الأنباط إلى الطمأنينة ، وحين استشعر أنه كسب ثقتهم واطمأنوا تجرّد لمحاولة ثانية ، انتقاماً لما مني به من إخفاق في المرة الأولى ، ومطاردةً لأحلام الثراء الذي قد يحرزه إذا هو نجح في الاستيلاء على بلادهم ، فجهز جيشاً وجعل قائده ابنه ديمتريوس ، ولكن ربايا الأنباط كانوا متنبهين أيقاظاً فبعثوا النذر إلى قومهم بإيقاد النيران على التلاع ، وأخذ القوم بالاعداد فرتبوا حامية للدفاع عن

---

(١) الربايا: جمع ربيئة، وهو الحارس يقف فوق مرقب يستطلع أحوال العدوّ.

مدينتهم ، وأحرزوا قطعانهم في أماكن صحراوية نائية لا يبلغها العدو ، ووجد ديمتريوس نفسه عاجزاً عن الاستيلاء على « الصخرة » . وفي الوقت نفسه راسله الأنباط قائلين : « ليس من الحكمة في شيء أن يعلن اليونان حرباً على شعب لا يملك ماء أو خمراً أو حَبّاً ، نحن لا نعيش كما يعيش أبناء اليونان ، ولا نرغب في أن نصبح عبيداً لهم » . وجرت بين ديمتريوس وبين ممثلين عن الأنباط مفاوضات ، أدّت إلى عقد صلح ، قدّم الأنباط بموجبه عدداً من الرهائن ، وبعض الرقيق والمال والهدايا ، وعاد ديمتريوس أدراجه ، فلما التقى بوالده « وبخه على عقد الصلح مع الأنباط ، قائلاً إن ذلك قد يجعل أولئك البرابرة أشد جسارة وجرأة حين خلاهم دون عقاب ، لأنهم قد يتخيلون أنهم أحرزوا عفوه لا من جرّاء سماحة فيه ولطف ، بل بسبب عجزه عن الظهور والغلبة » (١٠ : ١٠٥) .

هكذا كان الأنباط أول ما تعرف إليهم التاريخ المدوّن : شعباً أقرب إلى البداوة ، شديد التعلق بالحرية ، وهم متمرسون بالصحراء يتخذونها معقلاً ، يفيئون إليها إذا داهمهم عدوّ ، ولعلّ حرصهم على السلم لتأمين مصالحهم الرعوية والتجارية كان عاملاً مهماً في عدم تطوير قوتهم العسكرية وفنونهم القتالية ، كانوا يدافعون عن حوزتهم إذا لم يجدوا من ذلك بداً ، ولكنهم كانوا أيضاً يختارون أقلّ الوسائل خسارة . على أن الحملتين لم تكونا بأي حال محكاً لشجاعتهم ، بل إن لحاقهم بجيش أثنايوس ليدلّ على استعدادهم لركوب الخطر ، بعيداً عن حمى صخرتهم ؛ ويقال إنهم كانوا يعتمدون في انكفائهم إلى الصحراء على خزانات وصهاريج للمياه اتخذوها تحت الأرض ، وكانوا يظمئون قطعانهم فلا يوردونها الماء إلا كلَّ ثلاثة أيامٍ . ولا ريب في أنهم كانوا قد أفادوا من موقعهم على طريق التجارة الآتية من جنوبي الجزيرة العربية والذاهبة شمالاً إلى المنطقة الواقعة شرقي الأردن ، مارة بفيلادلفيا وجرش ، حتى

تبلغ موانىء الساحل الفينيقي ، وتتجه شمالاً في شرق فتبلغ بصرى ثم دمشق ، أو تتجه غرباً إلى غزة أو العريش .

إن هذه الصورة عن تفرّع الطرق التجارية مستوحاة مما تمّ بعد ، وربما كان النشاط التجاري في البدء لدى الأنباط أقلّ من ذلك بكثير ، وأنهم في بدايات الأمور لم يكونوا أكثر من أصحاب قوافل ينقلون السلع لحساب غيرهم ، ثم تطور بهم الحال قليلاً قليلاً ، فأصبحوا هم أنفسهم تجاراً أو شركاء في التجارة ، ولعلّ هذا ما يعنيه ديودور حين يقول :

« وقد تعوّد عددٌ غير قليل منهم على أن يجلبوا إلى الساحل : البخور والمرّ وأغلى ضروب الأفاويه ، يحصلون عليها ممن ينقلونها إليهم مما يسمى بالعربية السعيدة » (اليمن) .

وعلينا أن نقدر أنهم في مرحلة من مراحل تطورهم التجاري لم يكتفوا بنقل المتاجر براً ، بل بنوا لهم سفناً ، وأخذوا يبلغون موانىء اليمن نفسها لينقلوا بعض السلع إلى الميناءين الشماليين على البحر الأحمر ، أعني الحوراء (ليوقه قومه)[1] وأيلة ، وبذلك تضاعفت قدراتهم التجارية ، وازدادوا بسطة في الثراء ، ولم يهدد أحد مصالحهم التجارية حتى استولى البطالمة على ميناء أيلة ، وحالوا بين الأنباط وبين الوصول إلى البحر الأحمر، وليس بمستبعد أنهم ضايقوا التجارة النبطية في طرقها البرية حين استولوا على الولاية العمّانية ، ولعلهم أيضاً احتلوا المؤآبية والجبلية إلى الشمال من بترا[2] فإذا سمعنا أن ديودور ينسب إلى الأنباط القيام

(١) ليوقه قومه تعني القرية البيضاء وهذا هو معنى «الحوراء» أيضاً . ولكن بعض الباحثين (انظر رقم : ٢٥ في ببليوغرافيا البحوث) يقول إنها «عينونا» وغيره يقول إنها «ينبع البحر» .

(٢) يقرن بعض الدارسين هذه الأعمال ببطلميوس الثاني فيلادلفوس الذي حكم (٢٨٥ - ٢٤٦ ق.م.) . ويزيد بأن بطلميوس هذا أوعز إلى يونان من مدينة ميليطس بتأسيس مستوطنة في أرض اللحيانيين لمواجهة الأنباط وأنه وثق صداقته باللحيانيين ثم=

بأعمال التلصص والقرصنة البحرية ، فيجب أن نقدر أن ذلك كان ردّاً على تصرفات البطالمة إذ ليس من المعقول أن يلجأ شعب يعتمد في حياته على التجارة براً وبحراً إلى ممارسة اللصوصية والقرصنة ، فذلك يتعارض تعارضاً تاماً وحياة الأمن والاستقرار التي تتطلبها مصالحه التجارية ، وما كتبه ديودور صريح في الربط بين الفعل وردّ الفعل إذ يقول :

« بعد أن جعل الملوك في الاسكندرية طرق البحر ميسرة لابحار تجارتهم لم يكتف هؤلاء العرب بمهاجمة من تحطمت بهم سفنهم ، بل أنزلوا إلى الماء سفن قرصنة تطارد التجار والمسافرين محاكين بتلك الأعمال الوحشية الجامحة الطائوريين من أهل بنطس » .

وفضلاً عن صراحة هذا التقرير في أن أعمال القرصنة كانت ردّاً على البطالمة الذين انتزعوا تجارة البحر ـ على الأقل ـ من أيدي الأنباط ، فإنه يشير ضمناً إلى أن الأنباط كانوا قبل تحولهم إلى القرصنة ماهرين ـ ولا بدّ ـ في صناعة السفن ، وفي تسخير البحر لنشاطهم وقدرتهم العريقة في شؤون الملاحة .

وإلى هذه الفترة المبكرة من التاريخ النبطي يمكن أن ننسب إلى الأنباط مزاولة حرفة أخرى هي استخراج القير (أو الأسفلت) من البحر الميت وبيعه إلى المصريين بخاصة ، إذ لعله كان مهماً لديهم في أعمال التحنيط . وكل هذه الضروب من النشاط العملي هي التي قد يعزى إليها في المقام

= بالمعينيين الذين تعاونوا معه لحماية مصالحهم التجارية ضد الأنباط.

ويبدو أن بطلميوس حاول الاستيلاء على بترا، فلم يوفق لذلك، فاستولى على الساحل الشرقي للبحر الميت وحرم الأنباط من استثمار القار، كما أوقع بهم هزيمة حطم فيها معظم أسطولهم (سنة ٢٧٨ ـ ٢٧٧ ق.م.) وعلى هذا تكون حركة القرصنة رد فعل طبيعياً على ما أصابهم من خسارة.

الأول ظهور الحاجة إلى الكتابة ، فالأنباط الذين يتحدث عنهم ديودور الصقلي لم يكونوا أميين ، بل هم أنفسهم الذين كتبوا إلى أنتيغونس رسالة « بخط سرياني » ولعلها كانت بالآرامية أو بخط يمثل بداية التحول إلى الحرف النبطي ، والفرض الأول هو المرجح لانتشار الآرامية في ربوع الشرق الأدنى يومئذ وبها كتب نصّ من أقدم النصوص المتعلقة بالأنباط في القرن الثالث .

تلك هي أهم أجزاء الصورة التي رسمها ديودور الصقلي عن الأنباط ، ولكن بين الحالة التي يتحدث عنها هذا المؤرخ والأوضاع التي يتناولها استرابو ما لا يقل عن قرنين ونصف تختفي فيها أخبار الأنباط فلا نكاد نعلم من شؤونهم وأحداثهم وعلاقتهم بمن حولهم شيئاً . وأهم ما في الأمر أن الصورة التي يرسمها استرابو تنبىء عن تحوّل عميق في مظاهر حياتهم على اختلاف جوانبها . كيف استقر هؤلاء وما العوامل التي أدت إلى استقرارهم ، وكيف تأتى لهم أن يصبحوا أمة زراعية تُعْنَى بأدق طرق الري ووسائله ، متى أحرزوا تلك القدرة على الفن المعماري ، ومتى قيض لهم أن يتفوقوا في فنّ النحت ، ومن أين ومتى اقتبسوا ذلك النظام الاداري الدقيق وتلك الديمقراطية الفذّة ؟ أسئلة كثيرة لا نملك أجوبة لها ، ولكن الحقيقة تقف أمامنا ساطعة وهي أننا إزاء تطور خطير جرى ؛ نعم كانت بذوره موجودة لدى شعب شبه بدوي ، منذ البداية ، ولكننا لا نستطيع تتبع مراحله عبر قرن وأكثر من الزمان .

هؤلاء الناس الذين زعموا لأنتيغونس أو لابنه ديمتريوس أنهم لا يملكون ماء أو خمراً أو حباً أصبحوا من أكثر الناس مياهاً وخموراً ومزارع ، ويشهد استرابو أو راويته الذي ينقل إليه خبر القوم ، أن بلادهم كانت غنيةً بالفواكه ، وأن مدينتهم نفسها كانت تشتمل على حدائق . وأولئك الذين كانوا يكرهون البيوت المشيدة أصبحت لهم بيوت راسخة في الصخر لأنها قطعة منه أو هو هي ؛ وأصبح التملك الذي كان مظنة ضعف أمام

الأقوياء هو المقياس الذي يقاس به علوّ منزلة المرء في مجتمعه ، حتى ليقول استرابو « إنهم جد شغوفين بالاحتياز والتملك ، حتى إن من نقصت مقتنياته قُدِّرَتْ عليه غرامة، ومن زاد فيها نال التبجيل والتكريم» (١٦/ ٤ : ٢٦). ولكن هذا التحول الزراعي المعماري لم ينقص من اهتمامهم بالتجارة ، مصدر ثراء أسلافهم في غابر الأيام ، ويلحظ استرابو بشكل خاص وفرة الواردات من جهات مختلفة إلى مدينتهم ، حتى لقد أصبحت بترا ملتقى الناس من شتى الأمم ، وأصبحت قاعات المحاكم فيها تغصُّ بالغرباء ، لأن الأنباط أنفسهم يجنحون بطبيعتهم إلى المصالحة وقلما يفيئون إلى التقاضي (١٦/ ٤ : ٢١) .

وفي الفترة التي يتحدث عنها استرابو من حياة الأنباط كان نظام الحكم لديهم قد أصبح ملكياً ، ومن السهل أن نتصور الانتقال من زعامة الشيخ للقبيلة أو لحلف من القبائل إلى حكم ملكي ، فهو انتقال مألوف كثيراً لدى العرب قبل الأنباط وبعدهم ، وخاصة حين تفرضه الضرورة الناجمة عن تغير في المنسوب الحضاريّ ، وتعدّد في مجالات الادارة ، وتعقد في اللقاء بين المصالح الزراعية والتجارية والصناعية والحاجة إلى تنظيم الشؤون المالية . غير أن ملك الأنباط الذي يصفه استرابو بأنه كان يعيش عيشةً رفيعةً ويخطر في الأرجوان كان ما يزال يحتفظ بكثير من خصائص شيخ القبيلة فهو يخدمُ نفسه بنفسه ، بل يخدم ضيوفه أيضاً ، ويقدّم لشعبه « كشفاً » عن شؤونه الذاتية ، أي أنه يتمتع بقسط غير قليل من الروح الديمقراطية ، وإذا قيل له « مَرْنَا » بمعنى سيدنا (أو ربنا) فما ذلك إلا قياماً بواجب التعظيم .

- ٤ -
ملوك الأنباط

ليس بين الباحثين اتفاق على سياق الترتيب الذي توالى فيه الملوك على حكم الدولة النبطية. وتقع بعد حارثة الأول، الذي سيأتي الحديث عنه فيما يلي، ثغرة كبيرة، ليس ثمة ما يملأها حتى اليوم، ولكن تكاد تكون السلسلة التالية هي أكثر شيء قبولاً على ضوء النقوش والنقود، وبعض الأخبار التاريخية[1].

١ ـ حارثة الأول :

أول ملك نبطي نعرف اسمه عرضاً كان يدعى «حارثة»، وهو اسم كثير الشيوع في أسماء الأعلام لديهم ملوكاً كانوا أو سوقة، حتى لقد ظنه بعض الدارسين لقباً. ولما كان هو أول من عرف اسمه دعي «الأول» تمييزاً له عن كل من جاء بعده ممن اسمه حارثة، ولكنه ليس من الضروري أن يكون أول ملك نبطيّ. كان ذلك في حدود سنة ١٦٩ ق. م. حين حدث بين اليهود نزاع حول من يتولّى الكهانة العليا، فحازها رجل اسمه ياسون، ونازعه فيها رجل آخر اسمه منلاوس، وانتزعها من يده، ففرّ ياسون من بني قومه ولجأ إلى «طاغية» اسمه حارثة (سفر المكابيين الثاني ٥ : ٧ـ٩) كان حاكماً للأنباط. ولعل استعمال الفعل «لجأ» قائم على التجوز إذا اعتبرنا نهاية ياسون، وذلك أن حارثة ـ فيما يقوله سفر المكابيين ـ قد طرده، وليس في عرف العرب أن يطرد أحدهم من يحتمي

(١) انظر الملحق للمقارنة بين الاجتهادات المختلفة في تسلسل الملوك.

بجواره . وهذا نصّ ما جاء في سفر المكابيين :

«فهرب ثانية إلى أرض بني عمون، وكان خاتمة أمره منقلباً سيئاً لأن أرتاس (حارثة) زعيم العرب طرده، فجعل يفرّ من مدينة إلى مدينة والجميع ينبذونه ويبغضونه بغضة من ارتد عن الشريعة، ويمقتونه مَقْتَ منِ هو قتّال لأهلِ وطنه حتى دُحِرَ إلى مصر»

إنا إذا صدقنا نصّ سفر المكابيين هذا طرحنا فكرة اللجوء جانباً ، ولكن تحامل كاتب السفر على ياسون وشماتته بنهايته يجعلنا نتردد في قبول النص كما هو . ترى هل دخل ياسون أرض الأنباط ومعه عدد من أصحابه ، فكان حارثة يخشاه من ثم على مملكته ؟ أو كان بين حارثة وبين النظام القائم في اليهودية ما يشبه الاتفاق على عدم إيواء اللاجىء من هنا أو من هناك ؟ أو أن حارثة قبله لاجئاً أول الأمر ، ولكنه كان أضعف من أن يفي له بحق الجوار ، نظراً لقوة النظام القائم في اليهودية وقدرته على تهديد حارثة ؟ لا نملك الاجابة على هذه الأسئلة ، أو الترجيح بينها ، ولكن مما يلفت النظر استعمال كاتب السفر لفظة (Tyrannos) (بمعنى طاغية)[1] بدلاً من لفظة « ملك » : هل هذا يعني أن لقب « ملك » لم يكن حتى حينئذ لقباً على « شيوخ » الأنباط ؟ .

ولا شيء سوى ذلك عن هذا الملك ، إلا أن يكون هو حارثة نفسه المذكور في نقش وجد في الخلصة (Elusa) وهذا نصه « هذا هو الموضع الذي أقامه عبد نثيرو لحياة حارثة ملك النبط (نبطو)[2]» . ويرى ستاركي

(١) وردت لفظة «زعيم» بدل لفظة «طاغية» في الترجمة العربية، ويستعمل يوسيفوس أيضاً لفظة «طاغية» ولكنه لا يعني بها حاكماً مستبداً عسوفاً وإنما يعني حاكماً مطلق التصرف غير دستوري.

(٢) نص الأصل : ز ن ه/ ت ر/ ز ي/ ع ب د/ ن ت ي ر و/ ل ح ي/ و هـ ي/ ز ي/ ح ر ت ت/ م ل ك/ ن ب ط و.

أنه لا يتجاوز في تاريخه عام ١٥٠ ق. م. فإذا صحّ أن هذا النقش يشير إلى حارثة هذا ، فإنا باطمئنان نستطيع أن نقول إن الأحداث الأخرى التي أشار إليها سفر المكابيين تمت في عصره . ففي سنة ١٦٣ ذهب يهوذا المكابي وأخوه يوناثان إلى البرية بعد أن عبرا الأردن وسارا مسيرة ثلاثة أيام فيها «فصادفا النباطيين فتلقوهما بسلام، وقصوا عليهما كل ما أصاب اخوتهما في أرض جلعاد ، وأن كثيرين منهم قد حصروا في بصرة وباصر وعليم وكسفور ومكيد وقرنائيم، وكلها مدن حصينة عظيمة، وأنهم أيضاً محصورون في سائر مدن أرض جلعاد . . . . . . » (السفر الأول ٥ : ٢٥ ـ ٢٧) .

إنَّ هذا اللقاء الذي تمّ على الأرجح في حوران ـ وكانت تابعة للأنباط منذ عهد مبكر ـ كان لقاء ودياً سلمياً قائماً على التعاون ، وهو لا يتفق وما جاء في سفر المكابيين الثاني (١٢ : ١٠ ـ ١٢) حيث يسير يهوذا على رأس جيش إلى أن يصبح بعد يبنا بتسع غلوات[1] « فتصدى لهم قوم من العرب » فاقتتلوا وكسر عرب البادية ، والمخرج من هذا التناقض الظاهري أن نقول إن من سموا « العرب » هنا لم يكونوا من الأنباط ، فقد كان هناك قبائل عربية مختلفة في المنطقة الواقعة إلى الشرق من نهر الأردن ، ومن أبرز الشواهد على ذلك أن الذين هاجموا قافلة مكابية قرب مادبا هم عرب يدعون بني يمري (بني عمرو) (المكابيين الأول ٩ : ٣٥ ـ ٤٢) .

٢ ـ حارثة الثاني :

وتطول المدة بعد حارثة الأول حتى نسمع عن ملك نبطي آخر، وذلك في حدود سنة ١٠٠ ق.م. حيث يحدثنا يوسيفوس في كتابه Jewish Antiquities (٢١:١٣)عن بداية تضارب المصالح بين الأسرة الحشمونية وبين

(١) الغلوة : مسافة رمية السهم .

الأنباط، وملكهم يومئذ اسمه حارثة أيضاً (ويحمل لدى الدارسين لقب الثاني). كانت الدولة السلوقية حينئذ قد أخذت تدخل مرحلة ضعف وتقهقر مما أغرى الكسندر ينايوس ملك الحشمونيين بانتهاز الفرصة للتوسع، وجعل هدفه مدينة غزة فاستغاث أهلها بحارثة لقوته - فيما يبدو - ولقربه منهم، إذ كان الأنباط حينئذ قد بسطوا نفوذهم على منطقة النقب، وكانت غزة إحدى الموانىء التي تُنْقَلُ إليها المتاجر النبطية. وعلى الرغم من أن حارثة وعد الغزّيين بالعون وشجعهم على المقاومة، فإنه لسبب أو لآخر تلكأ في مدِّ يدِ المعونة لهم، فاستولى ينايوس على غزة ونهبها ولكنه لم يحتفظ بها طويلاً إذ خفّ للمشاركة في حرب أهلية اشتعلت نارها في الشمال من منطقته.

وأغلب الظن أن حارثة هذا هو الذي يذكره يوستين في (Epitome / ٣٩ : ٥) باسم (Herotimus) وأنه «سيد قوم من العرب ظلّوا مخلدين إلى الأمن حتى اليوم، ولكنهم أصبحوا حديثاً يهددون مصر وسورية بجيوشهم» فالشبه بين التسمية اللاتينية والعربية قائم يرجّح ذلك. وفي زمن حارثة الثاني هذا صدرت نقود نبطية، ولعله أول ملك منهم فعل ذلك إذ لم تصلنا نقود للملك قبله. وتحمل النقود المنسوبة اليه حرف «A» وهو الحرف الأول من اسمه (Arethas) وقد وجدت حديثاً كمية غير قليلة من العملة البرونزية وفيها نماذج تحمل حرف (ح) بالآرامية إشارة إلى حارثة.

ونحن على يقين من نهاية حكمه لأنا نعرف السنة التي حكم فيها ابنه وخليفته المسمى عبادة[١] (٩٥ ق. م.) إذ ورد هذا التاريخ في نقش خلّفه رجل صالح ورع من أهل بترا اسمه « أصلح » وفي هذا النقش ذكر

---

(١) قد يكون اسمه «عبيدة» (Obodas) ولكن التمييز هنا متعذر.

لإكمال نحت غرفة للعبادة في الصخر عند ذلك الممر الضيق المؤدي إلى بترا وقد « كرس » أصلح تلك الغرفة لذي الشرى ، بخط هو وسط بين الآرامي والنبطي[1] .

عبادة الأول (٩٥ ـ ٨٨ ق. م.) :

استمرّ في عهده النزاع بين الأنباط وبين الحشمونيين بقيادة ينايوس ، لأن أطماع ينايوس التوسعية امتدت إلى جلعاد وموآب واستطاع التغلب على عرب هاتين المنطقتين ، ولذلك تصدّى له عبادة في معركة عند جدارة (أم قيس) إلى الشرق من بحيرة طبرية ، واضطرته « هجّانة » الأنباط إلى الوقوع في واد عميق ، وكاد يفقد حياته . واضطر ينايوس إلى التخلي عن طموحه والتفرغ لضغوط أخرى بزغت في مكان آخر ، فردّ إلى ملك العرب ما كان استولى عليه من موآب وجلعاد وما فيهما من معاقل في مقابل أن يمتنع عبادة عن مساعدة خصومه .

رب إيل الأول (٨٨ ـ ٨٧ ق. م .) :

هو ابن حارثة الثاني وأخو عبادة المتقدم قبله ، لم يذكره يوسيفوس بالاسم ، ولذلك اضطربت المصادر في حقيقة حاله ، ونسبت ما سيرد من أحداث متصلة به إلى عبادة . غير أن المؤرخ أسطفانس البيزنطي ذكره لدى حديثه عن الحملة الثانية التي قام بها أنطيوخس الثاني عشر ضد العرب (وكانت هذه المعركة أواخر سنة ٨٨ ق. م. أو أوائل التي بعدها) . وقد أحرز الأنباط في تلك المعركة نصراً مؤزراً ، وقتل أنطيوخس ، وفرّ جيشه إلى قانا (التي لم يتعرف الدارسون إلى موقعها) ، وهلك معظمه جوعاً ، وكان رب إيل (وبعضهم يقول عبادة) في جيش عدته عشرة آلاف فارس .

---

(١) هذه هي القاعة التي أقامها أصلح بن أصلح لذي الشرى إله منبتو لحياة عبادة ملك نبطو في أول سنة من سني حكمه .

حارثة الثالث (٨٧ - ٦٢ ق. م.) :

(هو ابن حارثة الثاني أيضاً ، فهؤلاء ثلاثة إخوة في نسق) . وقد قطف حارثة ثمرة الانتصار الذي حققه سلفه ضد أنطيوخس ، إذ خلا جواره المباشر من تدخل اليونان (السلوقيين) مؤقتاً ، واستطاع أن يمضي قدماً في السياسة النبطية التوسعية ، وقد سنحت له الفرصة حين عرض عليه أهل دمشق أن تصبح مدينتهم تابعةً له ، إذ كانوا قد سئموا النزاعات اليونانية الداخلية ، كما أرادوا التخلص من تحرشات اليطوريين (وهم عرب كانوا يحكمون في منطقة لبنان الشرقي) بقيادة ملكهم بطلميوس بن معن (منايوس) فدخلت جيوش حارثة المدينة ، وظلت تابعة للدولة النبطية مدة تقرب من خمسة عشر عاماً ، ولها حاكم مقيم - نيابة عن حارثة ، وقد ضرب فيها حارثة سلسلة من السكة النبطية ، تخليداً لدخولها في حكمه ، ولعل ذلك كان سنة ٨٥ ق. م. ، إلا أن تلك السكة استمرت تحملُ شعاراً سلوقياً ، باليونانية لا بالآرامية ، وهي أول سكةٍ يظهر عليها اسم الملك النبطي وصورته ، وقد ألحق حارثة باسمه عبارة « محبّ يونان » وظلت تلك النقود تصدر حتى عام ٧٠ حين انتزعت المدينة من أيدي الأنباط ، وكان العدو الجديد الذي انتزعها هو تغرانس (دكران) ملك أرمينية .

وبعد ضمّ دمشق ، وهو كسب لم يكن حارثة يتوقعه ، اتجه نحو العدو القديم ينايوس ، فهاجمه (سنة ٨٢) وهزمه في موضع يقال له (حديدة) (Addida) إلى الشرق من يافا ، ثم انسحب بعد الاتفاق مع خصمه على شروط معينة . إلا أن ينايوس ردّ له الكيل بمثله فهاجم المنطقة الواقعة شرقي الأردن وانتزع من يد حارثة اثنتي عشرة قرية في تلك المنطقة ، وبذلك تمّ الفصل عملياً بين دمشق وسائر الدولة النبطية في الجنوب .

وفي حدود سنة ٧٦ ق. م. توفي ينايوس بعد أن أنهك جسمه

الاغراق في الشراب ، وأصيب بمرض يشبه الملاريا لازمه ثلاث سنوات ، وورث الملك بعده زوجته الكسندرا وصيةً على ولديها هيركانوس وأرسطوبولس ، وكان كل منهما يرى في نفسه صاحب الحق في وراثة عرش أبيه ، أما هيركانوس فلأنه الابن الأكبر ، وأما أرسطوبولس فلأنه كان يفوق أخاه قوة وشهامة ، وقد استطاعت الكسندرا أن تضبط الأمور الداخلية بحزم وكفاية رغم خضوعها لتوجيهات الفريسيين وهم المتشددون في تطبيق الشريعة الموسوية ، ولكن بروز دكران (تغرانس) الأرميني كان عاملاً مهدداً لتوازن القوى في سورية ، فاضطر حارثة أن ينسحب من دمشق ، كما خافت الكسندرا أن تصبح اليهودية هدفاً له ، فأرسلت إليه هدايا بصحبة سفراء يتوسلون إليه ألا يعامل ولايتها بقسوة ، فتقبل دكران ما أهدي إليه ووعد أن يكون بالملكة والشعب رفيقاً .

وفي دمشق أخذ دكران (تغرانس) السكة من يد الأنباط ، وأصدر عملة باسمه ، ولكنه غادر المدينة حين علم أن قائداً رومانياً (من قواد بومبي) قد بدأ بمهاجمة مملكته ، ولم يحاول الأنباط أن يستعيدوا دمشق إلى حوزتهم ، فوقعت المدينة نهباً في يد اليطوريين بقيادة أميرهم بطلميوس بن معن . وحاولت الكسندرا أن تُعينَ المدينة ضدهم فأخفقت ، وبعد وفاتها سنة ٦٧ شجر الخلاف بين ابنيها ، وهزم الأكبر منهما في معركة عند أريحا ، فتنازل عن السلطة الدنيوية والدينية (الكهانة العليا) لأخيه ، وذهب لاجئاً عند حارثة الثالث في بترا . وأخذ أنتيباتر صاحب ايدوميا ـ وكان صديقاً لحارثة ـ يحرضه على إرجاع هيركانوس إلى السلطة ، فقام حارثة بشن هجوم على اليهودية ، وكان أكبر حافز له على ذلك ليس عدالة القضية التي يحارب من أجلها ، بل وعد هيركانوس له بردِّ القرى الاثنتي عشرة التي كان ينايوس قد انتزعها من يد الأنباط ، وتلك القرى هي : مادبا . نبلّو . لبياس . ثرابسا . أغالا . أثونه . زعر. أرونه . مريسه . رده . لوسه . أوربه . وكلها تحيط بالطرف الغربي من هضبة موآب .

وزحف حارثة إلى اليهودية وضرب حصاراً حول القدس ، وفيما كان يؤمل أن يحقق هيركانوس ما وعده به كانت طلائع الجيوش الرومانية التي أرسلها بومبي إلى سورية تجتاح البلاد ، فتدخل دمشق التي أخلاها دكران (تغرانس) ويذهب قسم من الجيش بقيادة سقاورس إلى اليهودية . عندئذ ذهب ممثلون عن الفريقين المتحاربين - الأنباط واليهود - وكل فريق منهما يحتكم إلى القائد الروماني ويحاول أن يستميله إلى جانبه .

وبعد سماع شكاوى الفريقين والموازنة بينهما ، وبين قيمة الرشا ، قرّر سقاورس أن يكون إلى جانب أرسطوبولس ، فأمر حارثة أن يرجع بجيشه من حيث أتى ، وألا يستثير عداوة الرومان ، أي أنه إن لم يتخلَّ عن تأييد هيركانوس ولم يعد إلى بترا ، فعليه أن يتوقع زحف الرومان على بلاده في مستقبل قريب . وامتثل حارثة للأمر التهديدي فانسحب ، ومع ذلك لم يخمد ما كان في نفس أرسطوبولس من الاصرار على الانتقام، فلحق به وبيَّتَ جيشه عند مكان يسمى(Papyron) وقتل منه فيما يقال ستة آلاف جندي .

وفي عام ٦٤ ظهر بومبي على المسرح السوري ، وبدأ تنظيمه لسورية كي يجعل منها ولاية رومانية ، وبعد أن طوّف في الريف السوري في العام التالي ، صمم - فيما يروى - أن يقوم بالزحف على بلاد الأنباط ، أو كما يقول يوسيفوس « اقترح أن يتفحص الوضع في بلاد الأنباط » لا أن يقوم بالزحف العسكري . وتتفاوت الروايات التاريخية حول ما حدث بعد ذلك ، فيزعم المؤرخ ديو كاسيوس (Dio's Rome ترجمة هـ . ب . فوستر ، نيويورك ، ١٩٠٥ ، جـ ٢ ، ص ٦١ - ٦٢) أن بومبي زحف نحوه ونحو جيرانه وغلبهم دون عناء ووظف لهم حامية هنالك . كذلك يقول المؤرخ أبيان[1] (تاريخ الرومان ، ترجمة هوراس وايت ،

(١) مؤرخ يوناني من الاسكندرية ، اشتهر حوالى ١٢٣ب.م. وله تاريخ شامل للشعوب التي اخضعها الرومان .

مكتبة لويب الكلاسيكية ، نيويورك ، ١٩١٢ ، جـ ٢ ص ٤٤٢ ـ ٤٤٣) أن بومبي شن حرباً على العرب الأنباط ، وملكهم حينئذ حارثة . . . ولكن حتى نية الغزو فضلاً عن القيام به لا أثر لها عند يوسيفوس ، ولهذا يمكن أن ننظر إلى نيته لدخول مملكة الأنباط في ضوء ما فعله في زياراته الأخرى للمناطق السورية ، فأغلب الظن أنه كان يريد أن يكفل استتباب الأمور هنالك ، بترتيبات يتفق عليها مع المسؤولين . ولكن الذي صرفه عن ذلك جزع أرسطوبولس وقلة صبره في استعجال القرار الروماني حول القدس .

وهذه مسألة تتطلب شيئاً من الإسهاب لتصبح واضحة جلية : وذلك أن بومبي بعد ما أتم الترتيبات التي كان يراها ضرورية في سورية وأخضع كبار الأمراء وصغارهم في لبنان توجه نحو دمشق ، وأثناء إقامته تلقى ثلاثة وفود يهودية : وفد يمثل هيركانوس ، وثان يمثل أرسطوبولس وثالث يمثل الشعب اليهودي ؛ وشكا هيركانوس من أن أخاه أخذ الحكم منه عنوة ، فردّ أرسطوبولس على ذلك بأنه كان مضطراً للقيام بما قام به نظراً لعجز هيركانوس وقلة كفايته ؛ وأما الشعب فكان مطلبه إلغاء الملكية والعودة إلى نظام « الكاهن الحاكم » ، وأصغى بومبي لهذه الشكاوى ووعد أن يفصل في الأمر بعد عودته من بلاد الأنباط ، مما أثار استياء أرسطوبولس ، فانسحب بعد ما رافق بومبي مرحلة في توجهه نحو المملكة النبطية . عندئذ خامر الشك نفس بومبي فتراجع عما كان بصدده ، وأخذ يلاحق أرسطوبولس حيثما توجه ، وحين أصبح بومبي بجوار القدس ، جاءه أرسطوبولس خائفاً فزعاً وقدم له بعض الهدايا ، ووعده بتسليم المدينة له ، إذا هو كفّ عن إظهار العداء نحوه . فرضي بومبي بذلك وأرسل القائد غابينيوس لتسلمها ، إلا أن سكان المدينة أغلقوا أبوابها في وجهه ، فغضب بومبي ، وألقى أرسطوبولس في السجن ، وزحف نحو القدس ، فتغلب أنصار هيركانوس على أنصار أرسطوبولس وفتحوا له

المدينة ، وحين دخلها بومبي بعد أن قضى على أتباع أرسطوبولس ، سلمها إلى هيركانوس وقفل عائداً إلى رومة تاركاً كل سورية في عهدة سقاورس (Scaurus).

غير أن غزو سقاورس للدولة النبطية بعد ذلك قد يؤيد الظن بأنه كان متابعة لسياسة أرادها بومبي ، فإن لم يكن الأمر كذلك فقد كانت حملته تهدف إلى الاستيلاء على المال ، وقد اشترى حارثة السلم مع رومة بدفع ثلاثمائة طالن (Talent) للقائد الروماني ، وحين فعل ذلك حكم على نفسه بالتبعية ، وإن لم تبلغ تلك التبعية درجة الاستيلاء . وهذا ما يقوله يوسيفوس في وصف تلك الحملة :

« عندئذ قام سقاورس بحملة ضد بترا في ولاية العربية ، وأشعل النار في كل الأماكن من حولها ، وذلك لصعوبة الوصول إليها ، وبما أن جيشه عضّته المجاعة فإن أنتباتر [الايدومي والي ايدوم في عهد هيركانوس] ، زوّده بالقمح من اليهودية وبكل ما يحتاج إليه بأمر من هيركانوس نفسه ، ثم إن سقاورس أرسله سفيراً إلى حارثة ، وكان أنتباتر قد عاش في جوار حارثة من قبل ، فأقنع حارثة أن يدفع إلى سقاورس مبلغاً من المال ليوقف حرق بلاده ، وأعطاه كفالته لقاء ثلاثمائة طالن . ونزولاً عند هذا الشرط توقف سقاورس عن الحرب ، وتلك كانت هي رغبته مثلما كانت هي أيضاً رغبة حارثة» (Jewish Antiquities ١٤/ ٥ : ١) .

صحيح أن حارثة حين دفع ذلك المبلغ اشترى بلاده وحال دون تخريبها ، ولكن من الطبيعي أن تعد رومة هذا الموقف ـ مع احجام حارثة عن أية مقاومة للجيش الروماني قبل أن يبلغ بترا ـ من قبيل التبعية الضمنية . أما الأنباط فلعلهم وجدوا أن دفع بعض المال لا يخدش وجه سيادتهم واستقلالهم الذاتي خصوصاً وأن استيلاء الرومان على كل سورية



الشكل (٢) : نماذج نقود من عهد حارثة الثاني وحارثة الثالث

قد وضّح لهم مدى قدرتهم على المبادرة بالتحدي . ولقد حاول سقاورس بعد عودته إلى روما تخليد حملته ضد الأنباط بإصدار نقد يرمز إليها ، فصدر نقدٌ وعليه صورة حارثة راكعاً على ركبتيه إلى جانب جمل وهو يقدم غصناً في خضوع إلى القائد الروماني .

مالك الأول (٦٢ - ٣٠ ق. م.) :

لا نعرف شيئاً عن حارثة الثالث بعد حملة سقاورس ، ولا نعرف على وجه حاسم متى كانت نهاية حكمه، ويرى الأستاذ إنو ليتمان أن حكم حارثة انتهى سنة ٦٢ ق. م. وأن التاريخ المؤكد بعد ذلك هو عام ٤٧ ق. م. فلذلك يعتقد ليتمان بوجود ثغرة بين حارثة ومالك. وأياً كان الأمر فإن تقدير مدة حكم مالك هذا أمر اعتباري ، وكان القنصل الروماني العام لسورية عند نهاية حكم حارثة أو عند بداية حكم مالك هو أولوس غابينيوس ، وقد خاض سنة ٥٥ ق. م. معركة ضد ملك نبطي ، لم يذكر اسمه، فإن صحّ تقدير بداية حكم مالك، فهو الملك المعني في تلك الرواية ، أما لماذا قام غابينيوس بخوض تلك المعركة فأمر ليس من السهل التكهن به ، لكثرة الفروض والاحتمالات الممكنة في هذا الصدد ، ولكن لعل محاكاة سقاورس في الحصول على المال قد أصبحت ديدن الطامعين من حكام تلك الولاية ، أعني سورية .

وتاريخ حكم مالك متواشج متداخل مع أحداث اليهودية من ناحية ومع التغيرات والتحولات التي شهدها التاريخ الروماني في الفترة المضطربة قبل قيام الامبراطورية الأولى ، إذ كانت تلك التغيرات والتحولات تفرض التنقل من ولاء إلى آخر لدى حكام الدول الصغيرة ، وقد كان أنتباتر الايدومي هو المحرك - بصفته الناصح الأمين - لتوجيه نشاط مالك في هذا الاتجاه أو ذاك . وكان ذلك الايدومي يعد نفسه صديقاً للأنباط لصلات له وثيقة كانت سابقاً بهم ، ولقربهم من المنطقة التي يحكمها ، ولقوتهم العسكرية ولامداداتهم المالية له ، وقد تزوج فتاة نبطية

اسمها « كفرة » من أسرة نبطية مرموقة وأنجب منها أربعة أبناء ، يهمنا منهم هنا هيرود الذي عرف من بعد بالكبير وابنة تسمى سالومه .

وقد بدأ أنتباتر ولاءه ليوليوس قيصر سنة ٤٩ وأغرى مالكاً بمعونة قيصر ضد حاكم مصر البطلمي ففعل ، وكافأ قيصر صديقه أنتباتر على ذلك بتعيينه حاكماً على اليهودية ، وكان هذا مفيداً للأنباط لأنهم كسبوا جاراً مصادقاً لهم ، ولكن قيصر اغتيل سنة ٤٤ وسُمَّ أنتباتر ، ودخل البارثيون (الفرتيون) اليهودية ففر ابنه هيرود إلى بترا ليلجأ عند مالك ، فأبى مالك إجارته نزولا على أمر البارثيين ، وحين غير مالك موقفه كان هيرود قد أبحر إلى رومة حيث عينه الرومان ملكاً على اليهودية وأمروه بالتخلص من الحاكم الذي عينه البارثيون ومن البارثيين أنفسهم .

ثم حضر أنطونيو إلى المشرق ، ووقع تحت تأثير كليوبطرة ، فطالبت أنطونيو بأن يمنحها المملكتين : اليهودية والنبطية ، ولكن أنطونيو اعتذر عن إشباع هذا النهم الجامح ، واكتفى بأن أقطعها جانباً من الساحل الفينيقي ومزارع البلسم عند أريحا وكانت لهيرود ، ولعله أقطعها أيضاً جانباً من مملكة النبط واقعاً على خليج العقبة . وقد استأجر هيرود مزارع البلسم التي كانت حول أريحا وأخذ يدفع أجرتها لكليوبطرة ، كما تعهد بتحصيل اللازم لها قبل الملك النبطي ، وحين تقاعس الملك عن دفع المال المقدر عليه طلبت كليوبطرة من أنطونيو أن يوعز إلى هيرود بشن حرب على مالك ، ناويةً بذلك ، فيما يقدر يوسيفوس ، أن يستنزف أحدهما قوة الآخر بالتبادل ، فيتسنى لها تحقيق ما كانت تطلبه من قبل وهو الاستيلاء على مملكتيهما . وقام هيرود بتنفيذ ما أمره به أنطونيو ، فبدأ بغزو حوران ، وهي منطقة ذات حزون وكهوف صالحة للكمائن ، وخرج منتصراً في المعركة الأولى ، ثم توجه لمواجهة تجمع من العرب عند قناتا (قنوات الحالية في حوران) فمني بالهزيمة ، وطلب الصلح من مالك ، ولكن مالكاً ـ على خلاف العرف قتل الرسل وأخذ يفكر بالاستيلاء على

اليهودية ، فكان ردّ هيرود أن استثار حمية جنده ورفع من معنوياتهم واجتاز نهر الأردن وواجه جيشاً نبطياً على مقربة من فيلادلفيا (عمان) يقوده الثيموس ، فأصيب الأنباط بهزيمة منكرة ، وهرب عدد كبير منهم إلى صف عدوهم واستسلم من تبقى منهم ونادوا بهيرود حاكماً لهم .

هذه هي بإيجاز رواية يوسيفوس وفيها ثغرات توهي منها : فذهاب الأنباط إلى قنوات على المنحدر الغربي من جبل الدروز أمر في غاية الغرابة ، وكذلك طلب المغلوبين أن يكون هيرود حاكماً لهم فإنه أمر لا يكاد يصدق . دع عنك أن يكون حاكماً على بلاد الأنباط كلها ، والشيء المؤكد في الرواية هو استثارة هيرود لحمية الجيش بخطاب ألقاه عليهم ، وذلك لأنه تحدث لهم في ذلك الخطاب عن زلزال كان قد ضرب اليهودية (بعد الهزيمة في قنوات) وربط بين وقوع الزلزال وبين غضب الإله من موقف الأنباط.

وفي أواخر حكم مالك حاولت ابنة هيركانوس أن تستعين بالملك النبطي لمساعدة أبيها في استعادة ملكه وانتزاعه من هيرود . فأرسلت إليه رسالة تطلب فيها اللجوء إلى بترا وهي تأمل أن تنقلب الأوراق ضد هيرود بعد مقتل مولاه أنطونيو في أكتيوم وفوز أغسطس اكتافيان الذي قَدَّرَتْ أنه سينقم على هيرود ، ولا بدّ ، ولاءه لعدوه أنطونيو ، ويعيد هيركانوس حاكماً على اليهودية . ووقعت الرسالة في يد هيرود واطلع على ما تحتويه ، وبعث بها ليمتحنَ حقيقةَ مشاعر مالك نحوه ، وجاء جواب مالك مرحباً بهيركانوس ومن يلوذ به ، وكان ذلك هو المنفذ إلى إعدام هيركانوس الشيخ ، أما مالك فلم يتخذ هيرود نحوه أي إجراء ، وبهذه الحادثة يختفي من روايات يوسيفوس فلا يجري له ذكر .

وفي النقوش والنقود إشارات إلى مالك هذا ، فهناك نقش وجد بين خرائب قرية (Sammeh) إلى الشرق الجنوبي الشرقي من بصرى مكتوباً على أسكفّة باب ، وقد جاء فيه « هذا هو البناء الذي أقامه سيدنا مالك

الملك ، ملك الأنباط » ولم تكن القرية كبيرة بحيث تستحق أن يبنى فيها مبنى حكومي ، ولذلك يتجه التقدير إلى أن الملك كان يستعمل ذاك المبنى للخلوة والراحة ، وأما النقود فقد كتب عليها « مالك الملك ، ملك الأنباط » وهي من فضة ، على أحد وجهيها صورة رأس مالك ، وعلى الوجه الآخر صقر قد ضمّ إليه جناحيه .

عبادة الثاني (٣٠ ـ ٩ ق.م.):

تصفه الروايات التاريخية بالكسل وتراخي الهمة (يوسيفوس Antiq.) وبأنه لم يكن يعير الشؤون العامة فضلاً عن الشؤون العسكرية أي اهتمام (استرابو ٧ : ٣٥٨)، وقد يكون في هذا بعض الحق، ولكن الذي أكده على نحو مضخم هو مقارنته بوزيره الشاب النشيط الجميل الذكي الكثير الحركة «سلي (Syllaeus)[1]» الذي عرفه العالم الخارجي، ووجد فيه صورة الرجل الحيوي القائم بالمسؤولية، وبذلك تضاءلت إلى جانبه صورة الملك عبادة نفسه، وتصدرت الأحداث شخصية الوزير الذي كان يلقب في النقوش «أخا الملك» ـ وهي أخوة مجازية، تعني أنه اليد اليمنى للملك. وعلى الرغم من ضآلة الدور الذي ينسب إلى عبادة، فهناك نقش يستشف منه أن عبادة قد ألّهَ في عهد خليفته (CIS ٢ : ٣١٣ ـ ٣١٥ ط. باريس ١٩٠٢)، وليس لهذا التأليه وجه يحمل عليه، فإن عبادة لم يأت من الأعمال ما يستحق من أجله المغالاة في التكريم، وليس لنا ـ ما دام عبادة أول من أُلّه ـ إلا أن نعدّ ذلك الفعل من باب ارتفاع مكانة السالف في نظر الخالف، توطئة لمكانة يعمل الخالف على احتلالها حين يصبح العمل سنة متبعة، أعني أن من خلف عبادة كان يحاول أن يرسّخَ في نفوس أهل المملكة هيبة جديدة لملك النبط (الديمقراطي في ما عرفناه من قبل) ليكتسب لنفسه تلك

---

(١) سلي اسم يتردد في النقوش النبطية كثيراً وقد ذهب الأستاذ ليتمان إلى أنه يقابل(Syllaeus) وأنه ترخيم سليم ، ويرى الأستاذ جواد علي أنه «صالح» والمرجح هو رأي ليتمان.

المكانة بعد موته أيضاً، كما اكتسبها عبادة بعد موته، وقد يكون من عوامل ذلك التأليه ـ في حال عبادة بالذات ـ إضفاء غلالة من التقديس والاحترام على رجل حرمهما بسبب ما أجراه عليه سُلَّي من عمل يشبه الوصاية على القاصر. إننا لا نستطيع أن نجنح إلى نفي ذلك التأليه، إذ لدينا غير شاهد واحد يصرّح به أو يومىء إليه: فهذا أسطفانس البيزنطي يصرح أن «عبدة» هي المكان الذي دفن فيه ملك يؤلهه الأنباط (عبدة المدينة سميت باسم الملك)، كما استطاع الآباء الدومنيكان: يوسن (Jaussen) وسافناك (Savinac) وفنسنت (Vincent) أن يعيدوا رسم مخطط لأثر غريب ذي قاعدة بشكل نجم (وهذا ضريح دون ريب) ومعه «مخربشة» نبطية تقول: «عاش عبادة» وفي بترا نفسها ظهرت جماعة تتعبد لِعُبَادَة «الإله». وفي سنة ٢٠ ب. م. أقيم معبد حجري من أجله وزود بتمثاله (CISII, 354) أما هل أصبح التأليه سنة لدى ملوك الأنباط أو اقتصر الأمر على عبادة فذلك شيء لا قبل لنا بالجواب القاطع عنه.

ومن أول الأحداث التي ترتبط بالدولة النبطية في عهد عبادة الحملة الرومانية على بلاد العرب الجنوبية بقيادة غالس سنة ٢٥/ ٢٤ق. م. وقد كانت الحملة ترمي إلى الإفادة من مصادر الثروة السبأية إما «باكتساب صديق ثريّ، أو بالسيطرة على عدو ثري» وبعبارة أكثر إسهاباً، كان الرومان يريدون أن يتعرفوا إلى أصحاب تلك التجارة الكبيرة (وليس إلى وسطائها الأنباط) وأن يصبحوا شركاء فيها، سلماً أو عنوة. وقد ارتبط اسم الأنباط بهذه الحملة من طرق مختلفة: منها أنها ستمر، بل مرّت، في أرضهم أو أرض موالية لهم، إذ نقل الجنود من مصر بحراً إلى ميناء حوارة (ليوقه قومه) في الحجاز، ومنها أن دليل الحملة كان هو نفسه الوزير سليّ الذي أوصل الرومان إلى منطقة الجوف باليمن، ومنها أن غالس ورجاله نزلوا ضيوفاً عدة أيام على واحد من سراة الأنباط من أقرباء الملك واسمه أيضاً حارثة، ومنها أن الأنباط زوّدوا الحملة بألف رجل من رجالهم.

وقد كانت حملة مخفقةً، كما يعلم من كل من قرأ أخبارها المرويّة بإسهاب لدى استرابو، صديق إيليوس غالس. وقد حاول استرابو أن يضع كل المسؤولية في ذلك على عاتق سلي، وأن يقذفه بتهمة المكر والتغرير بالجيش[1] ولكن الدلائل تشير إلى أن الرجل كان مخلصاً في مهمته. وإذا نحن أغفلنا التفصيلات عن سير الحملة والمصاعب التي واجهتها وأسباب إخفاقها ـ فذلك كله يتجاوز حدود هذه الدراسة ـ لم نملك إلا أن نطرح بعض الأسئلة عن الدور النبطي فيها: وأول سؤال يعرض هنا هو: كيف يزود الأنباط حملةً بالدليل والرجال ويستقبلون ـ على مستوى ملكي ـ قائدها ورجاله بالحفاوة والتكريم، والنتيجة المتوقعة في أقل تقدير هي سيطرة الرومان ـ دونهم ـ على مفاتيح تجارة الهند وجنوب الجزيرة العربية؟ وكيف يقبل سلّي أن يقوم بدور «الدليل» وهو دور يمكن أن يقوم به واحد من عامة الناس؟ إن اجتماع السؤالين معاً في ارتقاب الجواب، يوحي بأن العقل المهندس لتلك الحملة هو سلي نفسه بمعزل عن عبادة الذي كان فيما يبدو لا يملك حولاً مع وزيره القوي، وأن ذلك كله كان يعني ضمناً فوز الوزير بتحقيق مصالح معينة لنفسه لا لدولته، كأن يثق فيه الرومان فيقبلوا أن يعتلي العرش بعد عبادة وربما كان هذا مأربه الأكبر؛ أو كأن يصبح هو ـ في أقل تقدير ـ ممثل الرومان في جنوب الجزيرة[2] (وذلك يؤكد ـ إن صح ـ إخلاصه في إنجاح تلك الحملة) وأن أعمال سلي كلها توحي بأنه إن كانت دولة الأنباط حينئذ تتمتع بشيء من الاستقلال، فإن ضمان سلي لمآربه كان يعني ربطها بسلسلة التبعية لرومة، وهذا يفسّر سرّ إعجاب أغسطس به بالإضافة إلى لباقته وذكائه، كما يفسر غضب أغسطس حين تولى حارثة

---

(١) من الأدلة على أن سليا لم يغرر بالجيش الروماني أنه بحسب وصف استرابو نفسه سلك الطريق المألوفة إلى نجران ومنها إلى نشق (إسكا عند استرابو) ويثيل (أرثولا) ووصل إلى مأرب (مارسيابا).

(٢) يقول استرابو إن الأنباط هم الذين شجعوا على قيام تلك الحملة، والأنباط هنا لا بد أن تعني سلياً الوزير.

(خليفة عبادة) المُلْكَ ولم يستأذنه، إذ كانت تلك التبعية قد أصبحت لدى أغسطس أمراً مقرراً.

وكان سلي يقوم بدور السفير لبلاده في الخارج، وقد زار بلاط هيرود الكبير ووقع في غرام سالومه أخت هيرود، وبادلته هي ذلك الحب، وكانت كما يقول يوسيفوس «شديدة الحرص على أن تتزوجه» وما كاد سلي أن يعود إلى بترا حتى غادرها إلى القدس من جديد ليفاتح هيرود بأمر ذلك الزواج، فاشترط هيرود لتحقيق ذلك أن يعتنق سلي الديانة اليهودية فكان رد سلي: «لو فعلت ذلك لرجمني بنو قومي» وغادر بلاط هيرود غاضباً؛ واهتبل هيرود تلك الفرصة لئلا يجد ما يوقعه في الحرج وزوج أخته من أول خاطب.

وقد نحمل كل تصرفات سلي إزاء هيرود من بعد على محمل من ذلك الإخفاق في الفوز بسالومه، إذ تتسم تلك التصرفات بالكيد والوقيعة، وأول ذلك أن هيرود سافر إلى رومة سنة ١٢ ق.م. فثار سكان منطقة اللجا ـ وكانت منطقة تابعة له ـ إلا أن ضباطه ونوابه استطاعوا إخماد الثورة، فهرب من قادتهم حوالى أربعين نفراً، آواهم سلي وأكرم مقدمهم وشجعهم على مدّ الأذى إلى مملكة هيرود، فرأى هذا من الصواب أن يعرض الأمر على حاكم سورية وحاكم بيروت، وأضاف إلى دعواه حول إيواء الثائرين أن الوزير اقترض منه مالاً ولم يردّه إليه، فقضيا له على سلي، وبدلاً من أن يصيخ سلي للحكم سافر إلى رومة ليعرض الأمر على أغسطس، ولعله في هذه الرحلة عرجت به سفينته على ملطية، وخلف هناك نقشاً باللغتين اليونانية والنبطية باسم ذي الشرى حمداً له على سلامة الوصول إلى ذلك المكان، ولم ينس في هذا النقش أن يحيي مليكه عبادة. وفي غيبته قام هيرود ـ بموافقة من حاكم سورية ـ وهاجم بلاد الأنباط ويمم حصناً يقيم فيه الثائرون، فأرسل الأنباط نحوه جيشاً بقيادة رجل اسمه (أو رتبته) «نقيب»، وانتصر عليه هيرود، وقتل القائد وأربعة وعشرون ممن معه، وانهزم سائر الجيش، وحين بلغ الحادث مسامع سلي أبلغه إلى

أغسطس بطريقة مثيرة، فغضب أغسطس على هيرود ورفض استقبال سفرائه، ووجد سلي لدى أغسطس حظوة وإعجاباً، وكتب هو إلى بترا يشير على عبادة أن لا يسلّم الثائرين ولا يردّ القرض أو المال.

هل وصلت هذه الرسالة وعبادة على قيد الحياة؟ مهما يكن من شيء فإن خبر وفاة عبادة بلغ سلياً وهو ما يزال في رومة، وأن الذي بويع بعده هو حارثة. فاستبدّ بسلي الشعور بالخيبة إذ يبدو أنه كان طامعاً في الملك، كما غضب أغسطس لأن حارثة لم يستأذنه في تولي العرش. إلا أن حارثة أرسل إلى أغسطس رسالة يكيل فيها التهم لسلي، وأنه هو الذي أمر بسمّ عبادة. وأيد جانباً من تلك التهم نيقولاوس الدمشقي المؤ رخ رسول هيرود فجرّح من «موثوقية» سلي ومواقفه عند أغسطس وطعن فيها، حتى رضي أغسطس بعد تردد عن حارثة وثبته في الملك. وكان من جملة ما قاله نيقولاوس: إن مكايد سلي هي سبب الجفوة بين هيرود وأغسطس، وأن كل ما قاله سلي ضد هيرود أكاذيب لا سند لها. وعند هذا الحد سأله أغسطس أن يكفكف من تعمياته وأن يتحدث عن حملة هيرود على بلاد الأنباط، فكان جوابه حسبما صاغه يوسيفوس:

«سأبين أولاً أن التهم التي بُلِّغْتَهَا لا يصحُّ منها شيء أبداً أو أن ما يصحّ منها قليل جداً، إذ لو كانت صحيحة لازداد غضبك بحقٍّ على هيرود. أما القول بالجيش المزعوم (الذي قاده هيرود) فذلك لم يكن جيشاً وإنما جماعة أرسلت لتطالب بدفع المال، ولم يرسل المال على التوّ، بحسب ما يقرره العقد، بل إن سلياً كثيراً ما حضر عند ساترنينس وفولومنيوس حاكمي سورية، وحلف آخر مرة في بيروت، بسعدك ويمنك، أنه سيدفع المال، ولا بدّ، في خلال ثلاثين يوماً، وأنه سيسلم الهاربين الذين آواهم في بلده. ولما لم يفعل سلي شيئاً مما وعد به، جاء هيرود إلى الحاكمين، واستأذنهما

في الحصول على المال فأذنا له، وبعد لأي غادر بلاده على رأس عصبة من الجند لتحقيق تلك الغاية. وهذه هي كل الحرب التي يتحدث عنها هؤلاء القوم بتفجع، وهذه هي قصة الحملة على بلاد العرب، وكيف تُدْعى حرباً حين أذن بها حاكمان من حكامك، وسوغتها العقود المبرمة، ولم يجر تنفيذها إلا حين دنس اسمك يا قيصر مثلما دنست أسماء سائر الأرباب؟ وها هنا موضع الحديث عن من يسمون الأسرى: كان هناك لصوص في الطرخونية (اللجا) وكان عددهم أول الأمر لا يزيد عن أربعين. ولكنهم زادوا عدداً فيما بعد. وقد نجوا من عقاب كان هيرود يريد أن ينزله بهم، ولجأوا إلى بلاد العرب، فتلقاهم سلي وزودهم بالطعام ليعمّ أذاهم بني البشر، ومنحهم موطناً يحلونه وكان له هو نفسه نصيب مما يكسبونه بالتلصص. ومع ذلك فقد وعد بتسليم أولئك الرجال، وحلف على ذلك بالايمان نفسها التي أقسم بها أنه سيرد الدين في الموعد المحدد. وهو لا يستطيع أن يثبت أن أي شخص عدا هؤلاء أخرج من بلاد العرب في هذا الوقت، بل لم يخرج كل هؤلاء وإنما عدد منهم لم يستطع التواري والاختفاء. وهكذا ترى أن الفرية حول أخذ أسرى، وهي فرية صورت على نحو بشع، ليست أقل تلفيقاً وكذباً من فرية الحرب، وقد جرى تزويرها عمداً لتثير غضبك، واسمح لي أن أؤكد بكل يقين أنه حين هاجمتنا قوات العرب وسقط واحد أو اثنان من جماعة هيرود صرعى، لم يفعل هيرود شيئاً سوى الدفاع عن نفسه، وعندئذ سقط «نقيب» قائدها قتيلاً، وقتل معه ما لا يزيد عن خمسة وعشرين، إلاّ أن سلياً يجعل كل واحد من القتلى مائة، فيقدر أن عدد القتلى كان ألفين وخمسمائة».

أما سلي فعاد إلى بترا خائباً، ويقال إنه نظم اغتيالات ذهب ضحيتها

عدد من أعيان الأنباط، وقيل إنه حاول أن يغتال هيرود نفسه. وسواء أكانت هذه الأمور صحيحة أم لا ، فإن عودته إلى رومة سنة ٦ ق.م. تدلّ على أن آماله في رضى أغسطس قد فوتت عليه صحة التقدير، فقد قطع رأسه بأمر من الامبراطور نفسه، وتلاه خصمه هيرود فمات حتف أنفه سنة ٤ق. م.، بعد أن قسم مملكته بين عدد من الورثة، فأخذ أرخيلاوس نصف اليهودية، وكانت اللجا وحوران والبثنية من نصيب فيليب، كما كانت منطقة الجليل والمنطقة عبر الأردن لأنتيباس، وأضيفت غزة وجدر وهبوس إلى ولاية سورية.

هكذا استأثرت الأحداث الخارجية أيام عبادة ـ ومعظم أيام من سبقوه ـ بجلٍّ ما نعرفه عن تاريخ الأنباط، ومردّ ذلك كله إلى أنه لم يظهر لدى الأنباط من يكتب تاريخهم، فما عرف من أخبارهم إنما ترشّحَ أكثره من خلال علاقاتهم بجيرانهم، كما ذكرت في الفصل الأول.

وقد أصدر عبادة خلال حكمه نوعين من النقد، أولهما صدر أوائل حكمه ويسمى «النقد البطلمي» أي وزنه وزن النقد البطلمي وعلى أحد وجهيه رأس عبادة وعلى الثاني رسم صقر، وثانيهما يسمى «النقد اليوناني» ويزن أربعة غرامات ونصفاً، وقد صدر بين السنة العاشرة والسنة العشرين من حكمه، وعلى أحد وجهيه رأس الملك أيضاً وعلى الثاني صورة رأسي الملك والملكة، وعلى جميع النقود كتبت العبارة الآتية «عبادة الملك، ملك الأنباط».

حارثة الرابع (٩ق.م. - ٤٠ب.م.):

قبل أن نتحدث عن حارثة وعصره، ولعله أزهى ما شهدته الدولة النبطية من عصور، لا بدّ من التوقف عند مسألتين يذكر الأولى منهما يوسيفوس، ويذكر الثانية استرابو:

يروي يوسيفوس أنه حين توفي عبادة خلفه على السلطة ملك اسمه

اينياس وأنه غيّر اسمه حين اعتلى العرش فجعله «حارثة» (١٦ : ٢٩٤)، وقد يكون الأصل في «إينياس» هو هانيء (هـ ن ء و) أو هنيء أو أنيشو (أنيس) وهو اسم غير مألوف في العائلة النبطية المالكة وإن كان شائعاً بين الأنباط أنفسهم، فهل غيره لينسجم اسمه مع السياق العام لأسماء الملوك النبطيين، أو أن «إينياس» في فترة الفوضى التي تلت وفاة عبادة، ووجد فيها سلي مجاله الرحب لتنفيذ المؤامرات، كان مغتصباً وليس من الأسرة المالكة؟ إن مما يدفع هذا الظن الثاني أن الذي كان يراسل أغسطس هو حارثة، وأن الذي كان يكيد لسلي عند الامبراطور الروماني هو حارثة نفسه أيضاً، وعلى هذا يرجح القول الأول.

ويقول استرابو إن الأنباط في أيامه، كانوا مثلهم مثل السوريين خاضعين للرومان (١٦/ ٤: ٢١) وهذا يعني أن دولة الأنباط حين كان يكتب استرابو كتابه كانت ولاية رومانية، وذلك يتعارض مع سيادة حارثة الرابع ومن بعده من الملوك، حتى قام تراجان بضم الدولة نهائياً إلى رومة سنة ١٠٦ ب. م. دعنا نضع إزاء هذه العبارة قول يوسيفوس في التعليق على رفض هيرود أن يزوج سالومه من سلي، إذ يقول: «ولم يكن ذلك الزواج ضاراً بمصالح هيرود، إذ به كان يضم «العربية» وحكومة تلك البلاد كانت قد أصبحت خاضعة لسلطانه» (١٦/ ٧: ٥) هذا جغرافي يزعم أن دولة الأنباط كانت تابعة لرومة، وهذا مؤرخ يزعم أنها خاضعة لهيرود، ووقائع الحال من إصدار نقد وغير ذلك من مستلزمات السيادة، متوفرة لدى الأنباط، فأين تقع الحقيقة؟ إذا تذكرنا ما روي عن غضب أغسطس لأن حارثة لم يستأذنه عند تولي العرش، قلنا بأن استرابو كان يعني شيئاً واقعياً حين قال ما قال، ولكن تلك التبعية كانت لفترة قصيرة، ثم رُدَّ إلى الأنباط استقلالهم الذاتي، وقد استطاع الأستاذ بوورسُكْ (Roman Arabia : ٥٤ ـ ٥٦) أن يقرب هذا التخريج من حدود القبول حين رصد إصدار النقد في زمن حارثة الرابع فوجد أن حارثة كان سخياً في إصدار النقد طوال

سني حكمه. إلا أن هذا الاصدار ينقطع في العام الثالث والثاني والأول قبل الميلاد، وبما أن استرابو ظل يكتب حتى العام الثاني ثم انقطع عن الكتابة، فمعنى ذلك أن تلك السنوات هي سنوات التبعية لرومة، وأن النصّ على ذلك من المؤلف كان في أصل كتابه، ولم يكن يمثل إضافات زادها من بعد. وأضيفُ هنا أن التبعية التي يعنيها استرابو كانت من قبيل الضمّ، ولكن التبعية التي تعني «صدق الولاء» كانت موجودة من قبل، ولعل الفترة التي قضاها عبادة في الحكم كانت أقوى ظاهرة توحي بذلك، وحسبنا حملة ايليوس غالس في هذا المقام، فهي من أقوى الشواهد. وأما قول يوسيفوس بخضوعها لهيرود، فهو من قبيل المبالغة، أو لعله يومىء من طرف خفي إلى قوة هيرود العسكرية، وضعف تلك القوة لدى الأنباط الذين كانوا يفضلون حلّ المشكلات الناجمة عن غير طريق الحرب ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

ويتميز عهد حارثة بعملية عمرانية واسعة ، تركزت حول القسم الجنوبي من المملكة بأكثر من سواه ، فتحولت المنشأة النبطية في مدائن صالح (الحجر) إلى مدينة كبيرة ، وتكاد القبور المجوبة في الصخر هنالك تضاهي الآثار المنحوتة في الصخور في بترا نفسها ، وأكثرها ما يزال يحمل نقوشاً تدل على أن معظمها تم في النصف الأول من القرن الأول ، وأقدمها نقش يحمل تاريخ السنة الأولى بعد الميلاد (سنة تسع لحارثة ملك نبطو) وإذا دققنا أكثر وجدنا عدداً عظيماً منها اتخذ مدافن لضباط عسكريين من ذوي الرتب المختلفة (كقائد مائة وقائد ألف وقائد فرسان وقائد أعلى) فما تفسير ذلك ؟ أكبر الظن أن مدائن صالح قد جعلت قاعدة عسكرية ، ولعلّ حارثة كان يتصور أن قوات رومة تعجز عن بلوغها إن هي حاولت ذلك وأنها تصلح أن تكون مثابة للدولة النبطية في المستقبل ، إذا صدق الاحساس بأطماع رومة ، وكانت ارهاصات ذلك واضحة عندما تولى حارثة العرش .. ثم إن الأنباط على مرّ الزمن كانوا قد خسروا كثيراً من

توسعهم التجاري بعد أن أصبح البحر الأحمر مجالاً لنشاط السفن الرومانية ، ومعنى ذلك أنهم لم يخسروا التجارة البحرية وحسب ، بل تضاءلت حصتهم من التجارة البرية ، وأخذت طريق بترا ـ غزة تكاد تصبح مهجورة . فهذا الانكفاء إلى الجنوب كان محاولة لانعاش الوضع التجاري وتعويض الخسائر ، ولا يفهم هذا الإجراء إلا إذا فهمنا الدور الجديد لطريق وادي السرحان ، فقد دلت النقوش التي اكتشفت في الجوف عند الطرف الجنوبي لذلك الوادي على كثرة ذوي الرتب العسكرية هنالك ، وهذا مما دل أيضاً على أن حارثة كان يحاول تقوية هذه المنطقة ليتم لتجارته الوصول من خلالها إلى بصرى ، دون حاجة إلى المرور بالمنطقة الواقعة شرقي الأردن التي قد تفكر رومة ذات يوم في ضمها إلى الولاية السورية .

ولعل التخوف من المنافسة الخارجية في النشاط التجاري هو الذي عمق الاهتمام بالزراعة في هذه الفترة ، فقد زادت حركة الاعمار في مدن النقب : عبدة وممبسيس (كرنب) ونصتان (عوجا الحفير) وخلصة وسبيتة ، وكان الري هو العامل الفعال الضروري لذلك الاعمار ، ولعلّ آثار نظام متقدم لحفظ مياه المطر وإجرائها إلى الأراضي الصالحة للزراعة إنما تعود إلى عهد حارثة ، ومثل هذا النظام نفسه قد أكتشف في القُرَيّة بالحجاز غير بعيد عن المركز الرئيسي في مدائن صالح ، ولم يقتصر هذا الاعمار على المنطقة الجنوبية بل نجرى مثله في بصرى شمالاً لأنها تسيطر على الطرق الداخلية من وادي السرحان ، ابتداء من الجوف وباتجاه دمشق ، وهكذا كانت أهمية بصرى تزداد بالنسبة للدولة النبطية .

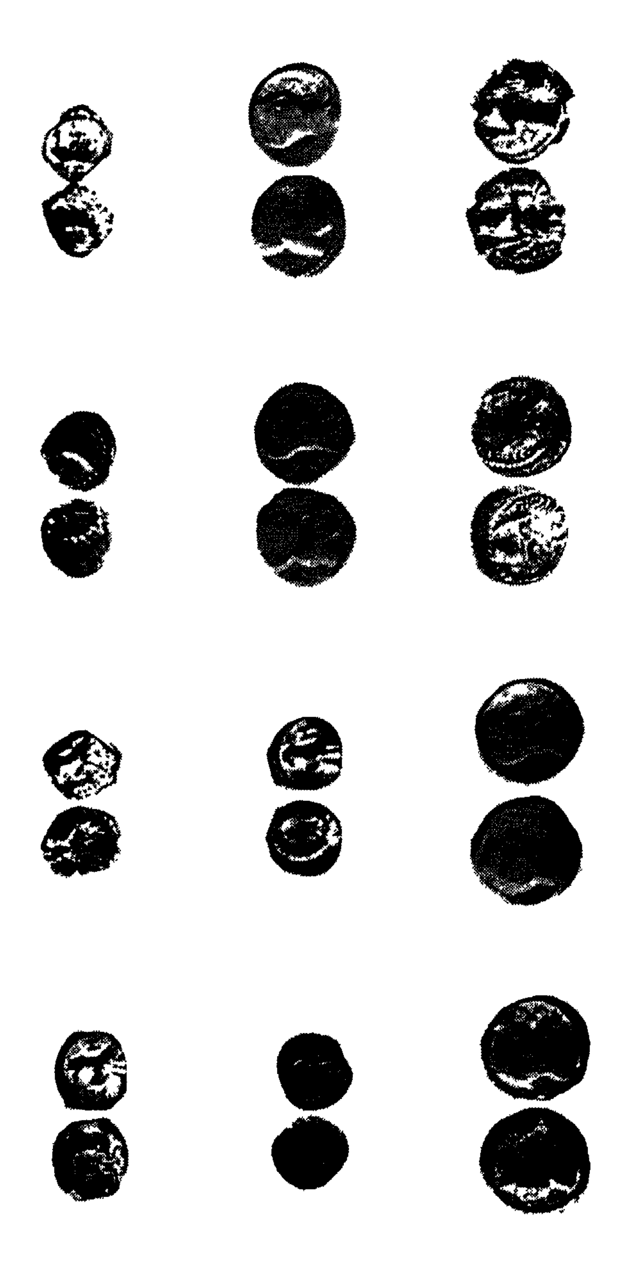
ونالت بترا نصيباً كبيراً من العمران في عهد حارثة ، ففي أثناء حكمه تمّ إنشاء أكبر معلمين من معالم تلك المدينة وهما **الطيطر** (theater) المجوب في الصخر عند الطرف الداخلي للسيق ، وذلك المعبد القائم في مركز المدينة ويعرف اليوم باسم قصر البنت ، ففي هذا المعبد الذي كان يظن أنه من

منشآت القرن الثاني ، وجد نقش يؤكد أنه من مباني عهد حارثة ، نعم إن أثر الذوق اليوناني فيه واضح كما أن أثر الذوق اليوناني الروماني في الطيطر أشد وضوحاً ، ولكن هذا لا يعني أن البناءين ومعهما ذلك البناء العجيب المسمى «الخزنة» متأخرة في الزمن، ولكن لنكتف بهذا في هذا الفصل إذ للحديث عنه موضعه الخاصّ به.

لقد سعى حارثة بكل جهده إلى أن يوفر لشعبه استقراراً زراعياً يؤمن لهم وسائل العيش ، إذا جفت ضروع التجارة ذات يوم ، دون أن يتخلى عن إيجاد طريق تجارية بديل لا يستطيع التمرس بها سوى الأنباط أنفسهم ، كما قوّى وسائل الدفاع الداخلي ، ومنح المراكز الكبرى في بلاده نهضة إعمارية عمرانية . فليس بكثير إذن أن يكون لقبه على النقود « راحم عمهو » (محب أمته) وقد كان حارثة يدرك أنه ينتقل بالدولة إلى مشارف حضارية جديدة ، لذلك كان يخلد أيام حكمه بتوالي الإصدارات النقدية حتى لا تكاد سنة من سنوات حكمه المديد تمضي دون نقد جديد، ولهذا يمكن أن نجد بين كل عشر قطع نقدية نبطية معروفة ثماني قطع ضربت في أيامه ، ويدل واحد من تلك النقود أنه خلّد الحركة العمرانية التي أجراها في مدائن صالح بإصدار نقد يحمل صورة رأسه على أحد وجهيه وعلى الآخر رسم لم يكن تحديده ممكناً وتحته لفظة « حجر » كذلك أصدر في السنة العشرين من حكمه (١١ ب. م.) نقداً تذكارياً لزواجه من شقيلت (شقيلة) التي أصبحت ملكة بعد وفاة زوجة سابقة له اسمها خلدو (خليدة)(Huldu) ـ حسب ما ورد في نقش تاريخه السنة الخامسة ب. م. وجد في بتيولي بإيطاليا ـ وعلى أحد وجهي ذلك النقد صورة نصفية لحارثة وقد كلل رأسه بالغار ، وكسي بثوب متدل متجعد وعلى الوجه الثاني صورة نصفية مزدوجة له ولشقيلة ، وقد كسيت أيضاً بثوب متجعد ، وعلى غطاء رأسها زينة ، ومعظم النقود التي أصدرها حارثة قد كتب عليها « حارثة ملك النبط ، محب أمته » . وقد كانت الملكة ـ أية ملكة من ملكات

الأنباط ـ تدعى أخت الملك زوجها ، ولعل ذلك عرف جرى على نسق تلقيب الوزير بأخي الملك ، ولم يكن يعني صلة قربى ولا هو من قبيل ما كان لدى المصريين من زواج الملك بأخته . كذلك هناك نقد يحمل اسم واحد من أبناء حارثة يدعى فص إيل (Phasael) مختصراً أو كامل التهجئة ، ويبدو أن أبناءه الآخرين لم يصدر باسمهم نقد ، ففي أحد النقوش (CIS ٢ : ٣١٣ ـ ٣١٥) ذكر لعدد من أبنائه وبناته ، وهم : مالك وعبادة ورب إيل وفص إيل وسعدت وهاجر (Hagiru) وواحد من حفدته وهو حارثة بن هاجر (وتاريخ هذا النقش السنة التاسعة والعشرون من حكمه) ، ويضيف نقش آخر (قد يعود في تاريخه إلى سنة ٢٥ أو ٣٥ ب. م.) شقيلت وجيلت ، فيصبح عدد البنات أربعاً إذا عددنا فص إيل هنا من الذكور (لأنه اسم ينصرف إلى المذكر والمؤنث) .

وإذا كان حارثة قد أمعن في إصدار النقد سنوياً وفي المناسبات البارزة ، فإن شعبه واجهه بفيض من النقوش التذكارية أو التعبدية ، مؤرخة بسنوات حكمه مرددة في كل منها ذلك النعت الجميل « محب أمته » وأن انتشار هذه النقوش شرقاً وغرباً بحيث وجد بعضها في إيطاليا لدليل على اتساع الآفاق التي كان يرودها الأنباط وعلى امتداد تأثيرهم التجاري والحضاري إلى مناطق نائية ، ونفرد بالتمييز هنا نقشاً وجد في مادبا لأنه ذو قيمة تاريخية ، وقد جاء فيه : « هذا هو القبر ومعه الهرمان المبنيان فوقه الذي أقامه عبد عبودت الستزتج (Strategos) من أجل أتايبل الستزتج والده ، ومن أجل أتايبل رئيس معسكري لحيطو وعبرتا ، ابن الستزتج المذكور عبد عبودت في مقرّ حكمهما الذي شغلاه فترتين ، أي ستة وثلاثين عاماً في مجموعها ، في أيام حارثة ملك الأنباط ، محب أمته » . وقد تم إنشاء ذلك الضريح في السنة السادسة والأربعين من حكم حارثة (أي سنة ٣٧ ب. م.) فأما لحيطو فهي لهيت التي ذكرت في سفر أشعيا (١٥ : ٥) وأما « عبرتا » فتعني المخاضة أو « المعبر » ولعلها هي



الشكل (٣) : نماذج نقدية من عهد حارثة الرابع

المخاضة على نهر عرنون (الموجب) في الطريق إلى الكرك ، وأما السترتيج فهو حاكم المقاطعة .

وهكذا عاش الأنباط في ظل حكم حارثة المديد في استقرار واطمئنان ، وقطفوا ثمار حياة سلمية وادعة ، وضربوا في الثراء بسهم وافر ، حتى ان حارثة أقام مأدبة في رومة عندما تولى طيباريوس العرش (١٤ ب. م.) وكانت الهدايا فيها تيجاناً من الذهب . ولقد دخلت علاقتهم برومة مرحلة « عدم تضارب المصالح » ـ فيما يبدو ـ فانصرفوا إلى مزاولة كل ما يمكن أن يمنحه السلم من بركات . وكان مما أكد هذا السلم منذ البداية أن الأنباط أمنوا استفزازات جيرانهم من يهود ، وذلك حين تزوج هيرود أنتيباس صاحب الجليل وملحقاته عبر الأردن ابنة الملك حارثة ، وقضى الزوجان معاً سنوات طويلة ، ثم بدا لهيرود أنتيباس سنة سبع وعشرين ، حين وقع في غرام هيروديا زوجة فيليب صاحب اللجا وحوران والبثنية ، وكانت في الوقت نفسه بحكم قرابتها من هيرود امرأة لا يحل له الزواج بها . ويبدو أن زواجها به إنما كان مشروطاً بافتراقه عن زوجته ابنة حارثة أو بالتخلص منها بطريقة ما ، فلما علمت الأميرة النبطية بما يدبّره زوجها سرت بليلٍ عائدة إلى أبيها ، وكل حاكم من حكام والدها يزودها بحامية توصلها إلى حدود منطقته ، وكانت نقطة الحدّ بين أملاك زوجها وأملاك أبيها هي قلعة مخايرس (مقاور) ، ولذلك جعلت من خطتها أن تبلغ تلك القلعة قبل أن يدركها الطلب ، حتى إذا بلغت بترا ووقف أبوها على حقيقة الأمر غضب غضباً شديداً ، وصمم على الانتقام ممن أهانه حين أهان ابنته ،وإذا كان حادث التباعد بين الزوجين في حدود سنة ٢٧ ب. م. فذلك يعني أن حارثة لم يستعجل الانتقام ، حقاً انه شن حرباً على هيرود وهزم جيشه فشكاه هذا إلى طيباريوس ، فأمر الامبراطور حاكم سورية أن يجرد حملة ضد الأنباط ، وأن يأتي بحارثة حياً في الكبول أو يبعث برأسه إن قتله ، ولكن حاكم سورية واسمه لوقيوس فتليوس لم

يظهر على المسرح السوري قبل ٣٥ ، وبين بدء ترتيبات الزواج من هيروديا سنة ٢٧ ، وقدوم فتليوس إلى سورية سنوات طويلة ، يؤكد امتدادها أن حارثة لم يتعجل الحرب ضد هيرود ، وإنما اختار الوقت المناسب .

ولتوضيح ما حدث لا بد من الدخول في بعض التفصيلات : زحف حارثة (أو قائده) بجيشه إلى شمال اليرموك وعسكر في موضع يسمى « جملة » وعند ذلك المكان دارت المعركة بين الجيشين ، وكان في جيش هيرود جنود من جيش فيليب . وكان فيليب قد توفي سنة ٣٤ وضمت أملاكه إلى الامبراطورية الرومانية ، ولم يكن غير وقت قصير حتى تبين الفشل في جيش هيرود ، وتخلى عنه المنضوون إليه من جيش فيليب وانحازوا إلى جانب الأنباط ، وخرج الجيش النبطي منتصراً[1] . عندئذ فزع هيرود إلى سيده طيباريوس ، فكانت أوامره هي تلك التي أشرت إليها من قبل . وتأهب فتليوس للقيام بالمهمة التي وكلت إليه ، على رأس جيش مؤلف من فيلقين من الفرسان وذوي الدروع الخفيفة ، وسار مخترقاً اليهودية إلى بلاد الأنباط ، فغضب اليهود لاجتياز ذلك الجيش خلال بلادهم مدنساً بذلك ترابها رافعاً أعلاماً عليها صور محرمة . وتفادياً لإثارة مزيد من الحساسيات سلك فتليوس طريق الساحل ، ثم عرّج وهيرود أنتباس على القدس لشهود عيد يقيمه اليهود هنالك، وقبل أن يعودا إلى الجيش بلغتهما وفاة طيباريوس فعدلا عن مهاجمة الدولة النبطية ، ووجد حارثة صدق نبوءة كهانه الذين أنبأوه أن الجيش الروماني لن يدخل بترا .

(١) استكمالاً للأحداث وتوضيحاً لها لا بد أن نذكر أن هيرود تزوج من هيروديا متحدياً بذلك شريعة مقررة، وأغضب ذلك الزواج الراباي (الحبر) يوحنون الذي اشتهر باسم يوحنا المعمدان، فعنف هيرود فحقدت عليه هيروديا، ولكن هيرود اكتفى بحبسه، إلا أن هيروديا لم تقنع بذلك فتسللت إلى فرض رغبتها على هيرود في لحظة ضعف، فطلبت رأس المعمدان وكان لها ما أرادت، ولذلك كان كثير من المحاربين في جيش هيرود ضد الأنباط يعتقدون أن الهزيمة إنما كانت عقوبة من العناية الإلهية لهيرود بسبب قتله للمعمدان، هكذا قال يوسيفوس (١٨/ ٥: ٢).

ويستدل من رسالة بولس الثانية إلى أهل كورنثس (وهي وثيقة مهمة) أن دمشق كانت تتبع حارثة ملك الأنباط ، وقد كان بولس في دمشق حوالى سنة أربعين ، وهي آخر عام في حكم حارثة ، كيف عادت دمشق إلى حكم الأنباط بعد أن استولى عليها الرومان ؟ من الصعب أن نجد تعليلاً مناسباً ، ولكن كلمات بولس صريحة حين يقول (١١ : ٣٢ - ٣٣) « كان الحاكم بدمشق تحت إمرة أرتاس (حارثة) الملك يحرس مدينة الدمشقيين ليقبض عليّ، فدليت من كوة في زنبيل من السور ونجوت من يديه » ومثل هذا القول يستدعي أن نفترض عودة دمشق ، ولو لمدة قصيرة بعد انتصار حارثة على هيرود ، إلى الدولة النبطية ، وذلك فرض قد يحلّ جانباً من تلك القضية المعقدة ، ولكنه غير مقنع في الجملة ، ويبقى الأمر معلقاً يتطلب مزيداً من الدرس والتنقيب . على أن بعض المؤرخين (ستاركي وغيره) يرون حلاً للاشكال أن لفظة « حاكم » في النص المأخوذ عن رسالة بولس لا تعدو أن تعني « حامياً » للجماعة النبطية التجارية في دمشق ، وأن قدرته على « القبض » على بولس يجب أن لا تؤخذ حرفياً ، ولكن هذا الاقتراح لا يستطيع أن يفسّر بعد ذلك لمَ يكون « بولس » هو المعنيّ وأن يكون من يتلمس الوسيلة للقبض عليه أو التربص به منتمياً إلى الأنباط إذا لم يكن ذا سلطة إدارية[1] .

مالك الثاني (٤٠ - ٧٠ ب . م .) :

هو ابن حارثة الرابع ، والأخبار قليلة عن عهده ، كان معاصراً للامبراطور الروماني قلوديوس (٤١ - ٥٤) وفي أيامه كانت حملة تيطس على اليهود وتخريب الهيكل ، ويروي يوسيفوس أن مالكاً هذا أمدّ تيطس - وهو يقوم بالاعدادات في عكا - بألف فارس وخمسة آلاف راجل ، وقد توقف إصدار النقد في السنوات الست الأخيرة من أيامه . وفي الوقت نفسه

---

(١) يتخلص اليسيف (EI2, V. III, P.) من هذه المشكلة بسهولة ، إذ يفترض أن دمشق عادت إلى الأنباط بموافقة الرومان .

استأنفت دمشق إصدار نقدها ، ولعل لكلا الأمرين علاقة بحملة تيطس على اليهودية وحاجة جنده إلى النقود . ويبدو أن مالكاً تابع سياسة أبيه في الاهتمام باعمار المنطقة الجنوبية من الدولة ، أما القول بأن دولة الأنباط أخذت في الانحدار في أيامه فقول مبنيّ على التخمين ، إمّا لأن السموق العمراني في أيام أبيه لم يجد ما يضاهيه في أيام مالك ، وإما ذهاباً مع الاعتقاد بأن فقدان الأنباط لجانب كبير من التفوق التجاري ابتداء من أيام حارثة أو قبله قد استمر يفعل فعله في بنية الدولة .

وليس لدينا من النقوش التي يذكر فيها اسم مالك هذا سوى عشرة أو نحوها ، لكنها متنوعة في محتواها ، فهناك نقش على قبر يعود إلى السنة الأولى من حكمه تكريماً للسترتج عبد ملكو ، نصبه أخوه السترتج يعمرو وقد وجد في أم الرصاص على سبعة أميال إلى الشرق من ذيبان(CIS II,195) وهناك ستة نقوش قبورية من الحِجْرِ يرجع تاريخها إلى ما بين السنة الثالثة والرابعة والعشرين من حكم مالك ، ومذبح نصب لذي الشرى (أعرى) في السنة الأولى ، وعلى النقود التي أصدرها تظهر زوجه واسمها أيضاً شقيلت، وقد اكتشف عدد كبير منها على شاطىء البحر الميت.

رب إيل الثاني (٧٠ - ١٠٦ ب . م .) :

كان صغيراً حين تولى العرش ، ولهذا عينت أمه شقيلت وصية عليه ، وهي تظهر على النقود الأولى من عهده ، فلما شبّ وتزوج (جميلت) وأصبحت هي الملكة صارت صورها هي التي تظهر على ما يصدره من نقود . وقد عثر على نقوش ترجع إلى عهده ابتداء من الحجر جنوباً حتى ضُمَير شمالاً ، وأحد تلك النقوش وجد في قبر مخصص لـ «أنيشو» (أنيس) أخي شقيلت ملكة النبط، ابن. . .» وهذه الأخوة مجازية على الأرجح ، ويمكن أن نجد هنا وزيراً آخر من وزراء الدولة النبطية اسمه « أنيس » كان يعاون شقيلت أثناء وصايتها على ابنها رب إيل ، تلك الوصاية التي استمرت حتى عام ٧٥ ب . م. كما وجد

نقش آخر ديني في ديدان يدلّ على أن حكمه امتد ستاً وثلاثين سنة[1] . وفي نترا عثر على نقش آخر ترد فيه أسماء أفراد الأسرة الحاكمة وبينها اسما جميلت وهاجر ، ومثله نقش يشبهه في محتواه عند جبل رم .

غير أن فترة حكم رب إيل كانت قليلة الأحداث ، ولهذا لم تملك انتباه مؤرخي الدولة الرومانية ، مع أن هناك نعتاً لافتاً للنظر يلحق باسمه حيثما ذكر وهو « واهب الحياة والخلاص لأمته » وهذا النعت إذا أخذ على وجهه الظاهري قد يعني أن فترة حكم الملك الذي سبقه كانت مظنة ظلم واستبداد، ولعل الأصوب في تفسير هذا النعت أن نقرنه بصدّ خطر خارجي أو إطفاء فتنة داخلية ، وهناك مجموعة من « المخربشات » تشير إلى قيام ثورة في حدود بداية حكمه ، تلك هي ثورة دَمَسي ، والمرجح أن هذا الثائر قاد تمرداً قامت به بعض القبائل البدوية لحرمانها من مشاركة كانت تتوقعها عند موت مالك وتولي رب إيل ، أو لعل تلك القبائل انتهزت صغره في السن لتحقيق بعض مآربها . وربما كانت هذه الحادثة هي التي يشير إليها نقشان صفويان يؤرخان بـ « سنة حرب النبط » . وليس ثمة ما يقف في وجه هذا التفسير إلا نسبة الخلاص إلى رب إيل دون أمه التي كانت وصية عليه حينئذ ، ومن السهل فهم هذا الموقف إذا تذكرنا أن شقيلت إنما كانت تحكم باسمه . وانصراف « حرب النبط » إلى صراع للدولة النبطية مع البدو معناه استبعاد لنشوب حرب بين النبط والرومان حين قرروا ضمّ الدولة النبطية ، إلى رومة ، كما تشير إلى ذلك وقائع الأحوال حينئذ .

ومما يلفت النظر أن رب إيل كان يقضي أكثر وقته في بصرى ، وتلك كانت بداية غروب مجد بترا سياسياً ، وإن بقيت محتفظة بمجدها

---

(١) هذا ينفي اقتراح بعض الباحثين وهو أن ملكاً اسمه مالك خلف رب ايل وحكم من سنة ١٠١ - ١٠٦.

التجاري ، وليست هناك حادثة سياسية خاصة مقترنة باستيلاء كورنيليوس بالما القائد الروماني ـ بأمر من الامبراطور تراجان (٩٨ ـ ١١٧) ـ على عاصمة الأنباط الأولى وضمّ الدولة النبطية إلى الدولة الرومانية عام ١٠٦ ب. م. وتحويل البلاد إلى ما سمّي ولاية « العربية » أو « كورة العربية » (Provincia Arabia) ويرى بعض المؤرخين أن الدولة النبطية عجزت عن حماية حدودها ـ وبالتالي حدود الدولة الرومانية ومصالحها ـ ولكن حتى لو قبلنا هذا التعليل فإنه لا يفسر لم اختير ذلك العام دون غيره للاستيلاء على بترا .

ويبدو الأمر ـ وإن كان غير قابل للتفسير ـ أن الاستيلاء على الدولة النبطية تمّ دون أن تكون هنالك أسباب عدائية ، واستمرّت الحياة في الدولة كما كانت دون توقف ، فالنقوش التي وجدت في عبدة بالنقب (وتعود إلى سنة ٨٨ ، ٩٨ في حكم رب إيل) تدل على نشاط واسع وخاصة في المنشآت الزراعية ، ويعدها نقوش يعود تاريخها إلى حوالى العام ١٢٦ (بعد سقوط بترا بعشرين سنة) وهي تشير إلى استمرار تلك المنشآت وازدهارها .

ولكن بترا لم تعد عاصمة دولة ، وحلت محلها بصرى عاصمة لولاية العربية ، وكانت بصرى حتى ذلك الوقت موقعاً غير ذي أهمية ، فأمر الامبراطور تراجان بإعادة تأسيسها ، وبذلك يشهد لقبها الرسمي المنقوش على عملتها وهو « بصرى الجديدة التراجانية » ، وقد زودها بالما بنظام قنوات لتصبح لائقة بمكانتها الجديدة ، أعني عاصمة ولاية كبيرة ، ومما يصور حال بصرى قبل تحولها بل وأثناء تحولها إلى عاصمة لولاية العربية قول دمسقيوس في وصفها (196: Vita Isidori) « لم تكن بصرى مدينة قديمة ، وإنما منحت مكانة مدينة في أيام الكسندر ساويرس (٢٢٢ - ٢٣٥) وفي مبدأ أمرها كانت قلعة ، بنى أسوارها ملوك العرب حماية لها من (تعديات) أهل السويداء (أو ديونيسياس) وهي قريبة منها».

وحين أصبحت بصرى عاصمة بدأ بذلك تقويم جديد اسمه تقويم الولاية (أوالابارخية) وأصبحت بصرى قاعدة الفيلق الروماني الثالث (القيريني)، ووضعت الحاميات الرومانية على طول الطرق الرئيسية التي تكوّن ما يسمّى «الحد العربي»، وكانت الطريق الجديدة التي بناها تراجان تصل بين سورية والبحر الأحمر، وفي أيام الأسرة الساويرية أصبحت الولاية الرومانية تضم البثنية والحورانية والطراخونية (اللجا)،أي تشمل كل ما كانت تضمه الدولة النبطية في أقصى حالات توسعها. وقد أخذ الأنباط فيها يمتزجون بعناصر أخرى سورية وعربية، وظلت اللغة النبطية تستعمل في الكتابة مدة من الزمن، حتى لنجد نقشاً مزدوج اللغة في أم الجمال باسم «فهرو بن شلي معلم جذيمة ملك تنوخ» يعود إلى سنة ٢٧٠ب.م. حتى إذا وصلنا إلى نقش النمارة المشهور(٣٢٨ب.م.)وجدنا الخط نبطياً واللغة عربية. وفي الحِجْرِ شاهد لرقاش ابنة عبد مناة وهو يعود إلى سنة ٢٦٧ب.م. ونصفه عربي ونصفه نبطي.

وفي القرن الثالث لم تعد بترا مدينة ذات شأن، لقد سلبت تدمر ما كان لها من مكانة، وتثبت نقود اكتشفت في أوائل ذلك القرن وهي من مسكوكات بترا نفسها أن ايلا غابالس (٢١٨ ـ ٢٢٢) منحها مكانة «مستعمرة» لأسباب غير معروفة. وفي الفترة البيزنطية فقدت مكانتها التجارية وأصبحت مركزاً دينياً.

ومن الثابت أن الزلزال الذي وقع سنة ٣٦٣ ب.م. في المنطقة قد أصاب عدة مدن كانت بترا واحدة منها، وتشير رسالة سريانية إلى هذا الحادث، وترد بترا فيها باسم «الرقيم». وقد دلت أعمال الحفريات التي قام بها غير واحد من علماء الآثار متعاقبين على وجود تخريب حدث في مواقع من المدينة وعلى الأخص في منطقة الطيطر الكبير؛ وبعد القرن الرابع يزداد شأن المدينة تضاؤلاً، ولم تعد في القرن السادس مستقراً لسكان مقيمين. ثم ضاع اسمها وذكرها من بعد، إلى أن بعث ذكرها من جديد: بركهارت (الحاج ابراهيم عبدالله) سنة ١٨١٢.



الشكل (٤): نماذج نقدية من عهد رب إيل الثاني



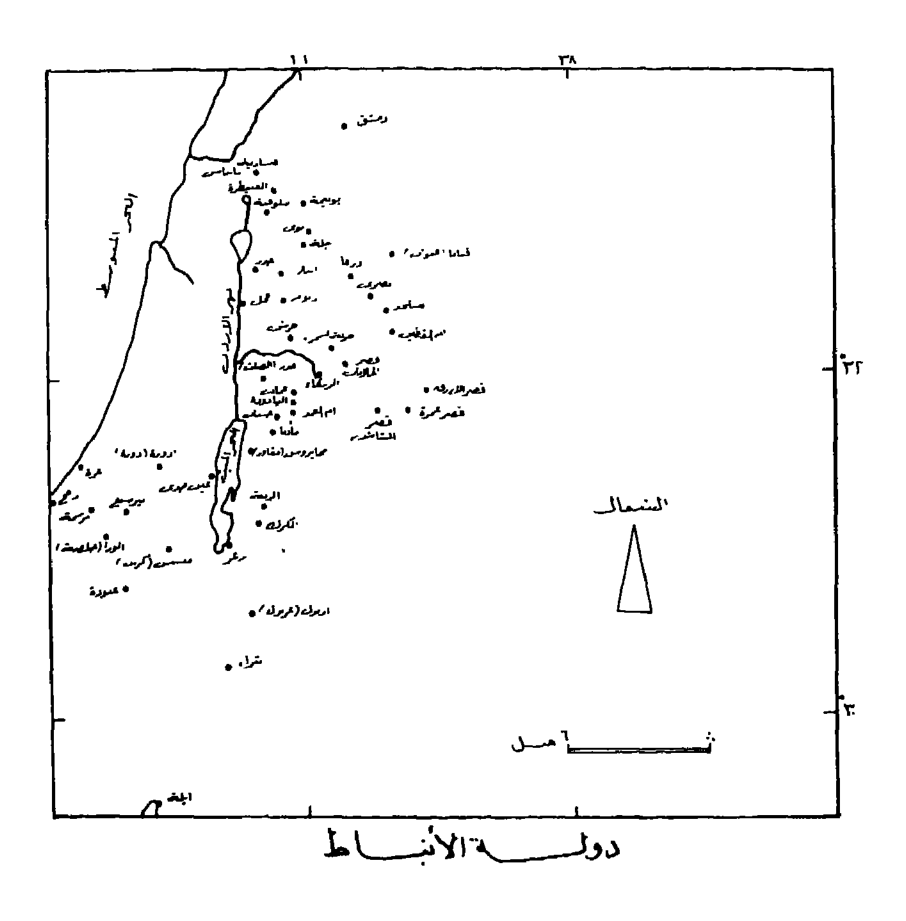
- ٥ -
الرقعة الجغرافية وأهم المواقع النبطية

بلغت دولة الأنباط أقصى اتساعها الجغرافي أيام حارثة الرابع، أي في أواخر القرن الأول قبل الميلاد والنصف الأول من القرن الأول الميلادي، إذ ضمت منطقة واسعة إلى جنوب بترا بلغت حتى حدود العلا، وكان وجودها واضحاً في منطقة النقب، كما كان امتدادها إلى الشمال قد بلغ أقصاه بضم دمشق (قبل عهد حارثة). وهذا الاتساع في معظمه سياسي وتجاري، إلا أن الاتساع التجاري قد تجاوز هذه الرقعة كثيراً، إذ يشمل موانىء البحر المتوسط، وسيناء وموانىء مصر، وساحل البحر الأحمر شرقي النيل، ويستخلص من النقوش النبطية التي وجدت بمصر أن الأنباط هنالك كانوا جالية خاصة لها كاهنها، وفيهم الرفّاء والاسكاف والجصّاص، ولديهم جمّالون من نقلة السلع ذهاباً وإياباً بين مصر وبترا، وقد تقدمت الاشارة إلى امتدادهم في حوض البحر المتوسط، حتى كانت لهم جالية ومعبد في بتيولي بإيطاليا ومن الثابت يقيناً أنهم بلغوا في تجارتهم اليمن، إن لم يكونوا تجاوزوها إلى الهند، فأما شرقاً فقد كانت صلاتهم التجارية تجعلهم يرودون موانىء شرق الجزيرة العربية لينقلوا السلع القادمة من الهند أو من أواسط آسيا إلى هجر (أو جرعاء)[1].

فإذا قصرنا النظرة على التوسع الجغرافي السياسي قدّرنا أنه كان لا بد

---

(١) يرى بعض الباحثين أن «جرها» ـ حسبما ترد في المصادر الكلاسيكية هي العقير، وأراها جرعاء ـ وهي على ساحل الخليج ـ أو هي مدينة «هجر» المشهورة، وقد اضطرب نطقها.



دولـــة الأنبـــاط

دولة الأنباط .

لهم بعد الاستقرار في منطقة بترا من أن يتجهوا شمالاً أو جنوباً، ولا ريب أن الاتجاه الشمالي كان أسهل وأنفع، أما سهولته فلأنهم فيما يبدو لم يجدوا فيه مقاومة تصدهم عنه، وأما نفعه فلأنه يمثّل وجهة السلع الآتية من الجنوب، فهو الاتجاه الطبيعي الذي لا بد من تأمينه ولهذا نقدر أنهم لم يتجهوا جنوباً في دور مبكر من تاريخهم للسيطرة، لأن الامتداد نحو الجنوب لم يكن من الضروري أن يكون سياسيا، إذ لم يكن مصدر خطر عليهم، أو لعله كان إلى جنوبهم قبائل قوية (كاللحيانيين في رأي كانتنو) رأوا من

المصلحة حينئذ أن لا يستثيروا عداوتها، وعقدوا معها عقوداً تجارية تؤمن تسهيل التنقل وتسهيل التعامل التجاري، وتعويضاً عن ذلك جرى اتساع الأنباط في المنطقة الساحلية عند العقبة، أما الامتداد جنوباً فلم يتجاوز الحوراء (ليوقه قومه) على الساحل، وتيماء والحجر في الداخل من أجل المصالح التجارية.

ولهذا كله نرى من الراجح أنهم استولوا بعد تأمين المنطقة الساحلية على المنطقة الجنوبية مما يسمى اليوم شرق الأردن، إذ كانت امتداداً طبيعياً للمنطقة الايدومية التي جعلوها نواة لبنيتهم الجغرافية، وأن عمق الوجود النبطي في هذه المنطقة بالنسبة لما هو واقع في شماليها وغربيها ليدلّ على أنهم أنفقوا وقتاً غير قليل في تركيز ذلك الوجود ومدّ جذوره، حتى بلغوا حدود مادبا إلى الشمال في مرحلة أولى، وسلكوا الطريق التجارية التي تخترق ما أصبح يعرف بمدن الحلف العشري (الديكابولس) وحين سيطروا على طريق وادي السرحان استطاعوا في مرحلة تالية أن يمدوا سيطرتهم السياسية على منطقة يمثل أقصى حدها الشمالي خط يمتد بين صلخد وبصرى، فأما ما يقع إلى شمال ذلك الخط فقد كانت سيطرتهم عليه فيما يبدو محض تجارية، أو سيطرة سياسية آنية.

لقد ورث الأنباط أول ما ورثوا تلك المناطق التي كانت ذات يوم ضمن مملكتي ايدوم وموآب، وقد كان الحد الشرقي والجنوبي لايدوم مزودين بخط من القلاع الممتدة بين الصحراء والأراضي الخصبة. حتى كان بالإمكان إرسال النذر في وقت قصير بإيقاد النيران إذا تعرضت البلاد لهجوم، غير أن الأنباط، وإن أفادوا في البداية من تلك القلاع، قد وسعوا الحدود الشرقية وأنشأوا لهم سلسلة قلاع موازية، وخاصة لقدرتهم على استثمار مناطق صحراوية جديدة خضوعاً لدواعي التطور وزيادة عدد السكان. ولقد وُجِدَت كسر كثيرة من الفخار النبطي في طول البلاد الايدومية ـ الموآبية وعرضها تدلّ على ذلك الامتداد، وكانت الحدود

الشمالية والغربية لما كان يسمى مملكة ايدوم أيضاً مزودة بالقلاع، كما كانت الحال في الحدود الشرقية والجنوبية، إلا أنها أقل عدداً لأن الخوف من التدفق البدوي من جهة الغرب كان قليلاً، كما كان معدوماً من جهة الشمال، لأن وادي حسا ووادي عربة كانا يمثلان في ذاتهما عنصراً دفاعياً. وقد اكتشف الأثريون في جنوبي ما يسمى اليوم شرق الأردن، أكثر من خمسمائة مرقب وقلعة وقرية ودسكرة نبطية مما يشير إلى عمران واسع، وبخاصة بعد أن دخل النبطيون في دور الاستقرار الزراعي، وإلى هذا الدور يمكن أن ينسب إلى الأنباط العمل في مناجم النحاس والتعدين في وادي عربة، وجمع القار من البحر الميت.

وكان امتداد الأنباط في مملكة ايدوم يعني أنهم لا بد لهم من أن يستولوا على الأراضي المؤآبية أيضاً. وتمثل الهضبة المؤآبية حداً طبيعياً يقف عنده التوسع بسبب إشرافها على وادي الأردن، ويستطيع المراقب فوق الهضبة أن يرصد كل تحرك عبر ذلك الوادي، كما أن انبساط الهضبة يجعل المواصلات سهلة، إلا في الوهدات الكبرى مثل وادي الموجب ووادي الزرقا. ولقد تمت سيطرة الأنباط على ايدوم ومؤآب في القرن الرابع، إذ إن إرسال أنتيغونس حملة على بترا (سنة٣١٢ق. م.) معناه تخوّفهُ من بسط الأنباط نفوذهم على المنطقة الواقعة شرقي الأردن. إلا أن احتلالهم لهذه المنطقة نقلهم إلى جبهة المواجهة مع السلطة القائمة في اليهودية، ففي المنطقة التي تسمى اليوم شرقي الأردن لم يستطع الأنباط أن يقتربوا بنفوذهم مما أصبح يسمى حلف المدن العشر، وكان جزء كبير عبر النهر شرقاً يطلق عليه اسم بيرايا (Peraea) غير خاضع لسلطانهم، وفي فترات الاشتباك بينهم وبين الحشمونيين كانوا يخسرون ثم يستردون بعض المدن والقرى، وقد كونت الهضبة المرتفعة في الغرب مع البحر الميت حداً بينهم وبين الدولة اليهودية، ورغم ذلك كله لم تكن الحدود واضحة تماماً بين الدولتين.

وحين اتسعت تجارة القوافل كان من الضروري للأنباط تأمين

الطريق التجارية التي تذهب من بترا مخترقة النقب إلى غزة أو العريش، ولعلهم في أول الأمر سلكوا تلك الطريق ودفعوا الاتاوات لمن يسيطر عليها، ثم رأوا أن الاستيلاء على النقب كله لا يؤمن الطريق التجارية وحسب بل يمهد لاستغلال الأرض للزراعة، وذلك حين أصبحوا قادرين على تطوير نظام مائي يكفل وجود تلك الزراعة واستمرارها. إن الاستيلاء على منطقة النقب والاستثمار التجاري والاقتصادي لها تشهد به تلك القلاع والعيون والآبار والأحواض والسدود والصهاريج المائية، وبعضها ما زال يمسك الماء حتى اليوم، والربعان على السفوح لحفظ التربة، واستثمار كل شبر من الأرض في مواقع مثل عبدة ونصتان وخلصة وسبيتة وعلى طول الطريق بين بترا وغزة، كما تشهد بها تلك الأعداد الكثيرة من كسر الفخار النبطي. ولكن يبدو أن استثمار النقب ـ أو على الأقل بداية العمران النبطي فيه ـ لم يبدأ قبل القرن الثالث قبل الميلاد: في ذلك القرن بنى الأنباط عبدة التي بلغت ذروة ازدهارها أيام حارثة الرابع (٩ ق.م. ـ ٤٠ب.م.) وعلى ذلك الازدهار تشهد النقوش العديدة والبقايا الأثرية ومركز صناعة الفخار فيها ومئات وحدات العملة. وفي كرنب لم تكتشف آثار نبطية مبكرة، ولكن كانت تقوم في موقعها مدينة ترجع إلى عهد نبطي متأخر نسبياً (في القرن الأول الميلادي) وتكاد نصتان تضاهي عبدة في سيرتها التاريخية، ولكن الأمر مختلف بالنسبة لخلصة، إذ لم يبق فيها من الآثار النبطية سوى الفخار ونقش واحد، وكل الشواهد تدل على أنها تنتمي إلى تاريخ متأخر كثيراً.

ومما يلفت نظر الدارس لعمران الأنباط في النقب ما خلفوه ـ إلى جانب النقوش والمنشآت المائية ـ من رسوم على الصخور في أماكن مختلفة من المنطقة مثل جبل عديد ووادي عبدة (وادي الرميلة)، فهناك صوروا على الحجر الحيوانات التي دجنوها أو التي كانوا يصيدونها، وبعض تلك الصور يمثل زحف المحاربين وقد سلّوا سيوفهم، كما أن بعضها الآخر يمثل

فرساناً امتطوا صهوات خيلهم، وهناك صورة لاثنين من الراقصين، ويغلب على تلك الصور إجمالاً ظهور الرمح والسيف والقوس والسهم، ومنظر الصياد الذي تنكب قوسه أو حملها وهو يقف وكلبه في مطاردة بقرة وحشية. إن هذه الرسوم على الحجر لتحكي قصة حكاها العرب الجاهليون من بعد في صورهم الشعرية.

ولا ننسَ أن الحركة العمرانية في النقب لم تكن على مستوى مطرد، فالمدن هنالك كانت تتعرض لفترات متعاقبة من الازدهار والأفول، وذلك مرتبط بوضع الدولة النبطية نفسها وبتعرضها للمشكلات الداخلية والخارجية، وخير مثال على ذلك عبدة نفسها فإنها انحدرت بعد عهد حارثة الرابع ثم عادت تنتعش في أواخر النصف الثاني من القرن الأول الميلادي، واستمرت كذلك تشهد تزايداً في المنشآت الزراعية حتى سنة ١٢٦ب.م. أي بعد سقوط الدولة النبطية وضمّها إلى رومة، ثم انتقض أمرها من جديد على يد موجات من البدو ولم تعد إلى الوجود إلا في حدود سنة ٢٤٢ ب.م. ويجب أن نربط بين ازدهار النقب وبين أهمية طريق بترا - غزة لتجارة الأنباط ثم اضمحلال تلك الأهمية، وذلك من جانبه مرتبط بالتجارة، فلما كانت التجارة خالصة للأنباط كانت الطريق مهمة وكان ازدهار النقب مكفولاً، ولكن عندما اختطف الرومان ثم التدمريون تلك التجارة من يد الأنباط وحولوها إلى طرق جديدة، اضمحلت أهمية الطريق، وتبعها في هذا الانحدار ازدهار المدن وجانب من النمو الزراعي، ولهذا خلف هذا الدور في حياة المدن دور آخر يتمثل في التركيز على الزراعة وحدها، وكان هذا الدور أيضاً قصيراً لأنه مال إلى الأفول بعيد الانهيار السياسي بسنوات معدودات.

ويكاد أن يكون الوجود النبطي في سيناء امتداداً لوجود الأنباط في النقب، وإن لم يكن ذلك الوجود مشمولاً بالاستثمار الزراعي الواسع، وقد كان المرجح أن سيناء لم تكن منطقة استقرار لهم، وإنما كانت طريقهم

إلى مصر، ولكن يبدو من متابعة البحث والكشوف في شبه الجزيرة أنها كانت جزءاً مكملاً من المملكة النبطية، وأن ابتداء وجود الأنباط فيها يعود إلى العهد الهلنستي، ولذلك تكون صلة الأنباط بسينا، موازية ـ زمنياً ـ لصلتهم بالنقب ومنطقة ايدوم وجنوبي سورية. وكانت أهم مواطنهم فيها إلى الشرق من قناة السويس وإلى الجنوب الغربي من أيلة في الشمال، وفي المنطقة الجبلية الجنوبية. وقد وجدت في سيناء إلى جانب النقوش النبطية نقوش يونانية وثمودية وأرمينية وعربية، وتكاد فائدة هذه النقوش أن تقتصر على إضافة مزيد من الأسماء إلى قائمة الأعلام النبطية.

وفي زمن مقارب للوجود النبطي في النقب، نرى الأنباط في حوران وإن وُجِد من الباحثين من ينكر ذلك. غير أن ما يمكن أن نسميه بردية زينون يشهد بوجود الأنباط هنالك حوالى سنة ٢٥٩ق.م. ولكن طبيعة ذلك الوجود المبكر غير واضحة، ولعلّ سيطرة الأنباط بالمعنى الصحيح على حوران لم تتم قبل عهد عبادة الأول حين اصطدم بينايوس سنة ٩٣ ق.م. في النزاع على الجولان، وعهد حارثة الثالث الذي استولى على دمشق سنة ٨٥ ق.م. إن الشواهد على وجود الأنباط في منطقة حوران لتوجد في المعابد والنقوش والتماثيل التي خلفوها هنالك، بالإضافة إلى الشهادات التاريخية وبخاصة عند يوسيفوس، ولكن يبدو أنهم لم يعمروا تلك المنطقة بأعداد سكانية كبيرة، فقد كانوا حكاماً في الغالب، ولم يكن العنصر النبطي هنالك يمثل رعية نبطية كبيرة العدد بل لعلّ سيطرتهم على المنطقة لم تتطلب الاحتفاظ بجيش قائم إذ نجد أنهم كانوا يحشدون جيوشهم من بترا إذا أرادوا التوجه شمالاً كما أنهم حين فقدوا دمشق باحتلال تغرانس (دكران) الأرمني لها سنة ٧٢، ثم حين أخلاها القائد الأرمني بعد بضع سنوات لم يهبوا ـ في الحالين لاستردادها، ولعل لذلك سبباً لا علاقة له بالقوة العسكرية، إذ خلال بضع سنوات أخرى كان باستطاعة حارثة أن يجمع جيشاً قوامه خمسون ألف رجل ويحاصر القدس

لقاء أن يرد عليه هيركانوس ما كان قد استولى عليه من أراض في المنطقة الواقعة شرقي الأردن. هل كانت قبضة الأنباط على الحورانية - وهي المنطقة الواقعة إلى شرق بحيرة الجليل وجنوبي دمشق وشمالي الحلف العشري - غير محكمة؟ لعلّ ذلك كذلك إذ النقوش تشير إلى حكام أنباط في تلك المنطقة، ولكن إزاء تضييعهم لدمشق علينا أن نعد أولئك الحكام محض «شيوخ» قبليين يدينون للدولة النبطية بتبعية اسمية.

وقد سكن الأنباط في ثلاث مناطق رئيسية من سورية:

١ - في المدن الواقعة على المنحدر الغربي من جبل حوران.

٢ - في المدن الكبيرة والصغيرة والقرى على الجانب الجنوبي من الجبل، وعلى المنبسط السهلي الزراعي الممتد غرباً نحو درعا وجنوباً شرقاً نحو الحماد.

٣ - في بعض المواقع في اللجا وهي منطقة الطراخونية قديماً. ولكنهم لم ينزلوا في سهل النقرة إلى غرب الجبل ولا سكنوا المنحدرات الشرقية منه.

أما انتشارهم عبر السهل الجنوبي فيدلّ على أنهم كانوا يسيطرون على السهوب المتجهة جنوباً إلى وادي السرحان وما وراءها، وبالسيطرة تتم كفالة الأمن ويخلد الناس إلى استثمار الأراضي، ولكن هذه الحال لم تكن موجودة في السهل الواقع إلى غرب الجبل أو في السهوب الممتدة إلى الشرق، ولهذا ظلّ سهل النقرة غير مستثمر إلى أمد طويل. وأما على المنحدرات الغربية للجبل حيث تتوفر المياه والتربة الصالحة للزراعة ومعها القدرة على الحماية فقد برزت أهم المدن النبطية وهي السويداء وقنوات وسيعا. ولم تكن التجارة العامل الأول في نمو هذه المدن بل كان العامل في الأرجح هو زراعة الكروم، ثم صناعة الخمر، فلا عجب أن تصبح المنطقة حمىً لذي شرى الذي أصبح بعد فترة من تعيّف الخمر وتحريمها يقرن

بديونيسيوس رب العربدة، وأن تسمى السويداء «ديونيسياس» وقد كانت اللجا صالحة لزراعة الكرمة، ولكن يبدو أن سيطرة اللصوصية والحرابة بين سكانها قد حالت دون استثمارها.

غير أن تبعية جميع الحورانية للأنباط لم تعد قائمة أيام أغسطس حين أعطى شمال هذه المنطقة ومعها الأراضي اليطورية حول بحيرة الجليل وجبل حرمون والطراخونية والجولانية إلى هيرود الكبير. وقد أسكن هيرود في البثنية جماعة من يهود بابل، وفي عهده بدأ استثمار سهل النقرة الخصيب الذي أصبح من بعد «هرياً» من أهراء رومة، ثم تلا ذلك ثورة أهل الطراخونية على هيرود، وإيواء الأنباط لزعماء الثائرين بتوجيه من سلي الوزير؛ ترى هل كان هذا الاجراء انتقاماً لضياع المناطق الحورانية سياسياً من يد الأنباط أو بداية خطة لاستردادها؟ مهما يكن من شيء فإن ربط التحدي الذي أبداه سلي تجاه هيرود يجب أن لا يفسر وحسب على ضوء إخفاقه في الزواج من سالومه. وقد بقي جنوب منطقة حوران في يد الأنباط ولهذا نجد النقوش من بصرى وصلخد تؤرخ بحكم ملوك النبط، أي أن الخط الفاصل بين ما كان للهيروديين وما بقي للأنباط كان يمتد إلى الشمال من درعا واصلاً إلى بصرى وصلخد، فكل ما كان إلى جنوب ذلك الخط كان تابعاً للأنباط، بل إن رسالة بولس إلى الكورنثيين ـ وقد أشرت إليها من قبل ـ لتدل على نوع من السيطرة النبطية (ولو مؤقتاً) على دمشق. ولدى سيطرة الهيروديين على قسم من حوران لا نسمع عن عرقلة للتجارة النبطية أو تدخل فيها ولا عن تدهور في ازدهار المدن النبطية هنالك. غير أن القول بأن الأنباط ظلوا يمارسون تجارتهم وظل الهيروديون «الشرطة» التي تحمي تلك التجارة، يبدو غير مقنع. والأقرب إلى المعقول أن التجارة ـ لمصلحة الفريقين ـ جعلت مستقلة عن النزاعات السياسية حين تقع، وهذا أمر لم يمارسه الأنباط أثناء سلطة الهيروديين وحسب، بل مارسوه لدى مرورهم في الشريان الكبير الذي يخترق الحلف العشري، ومن الممكن أن يضاف إلى

ذلك أن الاعتماد شبه الكليّ - في بعض الحقب - على طريق وادي السرحان يمثل فراراً من المشكلات عند تضارب المصالح السياسية وتأثيرها على الاقتصاد التجاري.

لقد أقام الأنباط في حوران مصالح تجارية في المقام الأول بغض النظر عن مدى نفوذهم السياسي، ومن أجل هذا لم نسمع أنهم اصطدموا بالرومان حين احتل هؤلاء سورية (٦٤ق.م.)، كما لم نسمع عن أية مواجهة بينهم وبين البارثيين (الفرتيين) حين دخلوا سورية (البقاع) سنة ٥١ ق.م. إنه لوضع غريب ألا تجعل التجارة في حماية نظام سياسي أو عسكري. ولهذا فإن العلاقة بين الأنباط وبين ممتلكاتهم في سورية تلقي على الباحث أسئلة محيرة، ذلك أننا إذا استثنينا الطريقين التجاريين - طريق المدن العشر وطريق وادي السرحان - اللذين يصلان النبط في الجنوب بممتلكاتهم في الشمال وجدنا وضعاً غريباً حقاً، فتلك المناطق تكاد تكون منفصلة عنهم جغرافياً بسبب حاجزين هما حلف المدن العشر والمنطقة التي تسمى بيرايا، وعند كل تغير في العلاقات كان يمكن لتلك المناطق أن تضيع من أيديهم فهي حيناً تابعة لهم وحيناً آخر غير تابعة، وهم لا يحركون ساكناً تجاهها حتى حين تلوح الفرصة لهم لاستردادها. ومن ثم نحن لا نعرف كيف كانت تدار، وما العلاقات - غير التجارية - التي كانت تصلها بالدولة في الجنوب. وثمة شاهد غريب - إن صح - على التفاوت بين وجودهم في جنوب شرق الأردن ووجودهم في الحورانية، فهم في جنوب شرق الأردن أقاموا البلاد على أساس من تنظيم دقيق وكثافة سكانية كبيرة، وتدل المواقع التي احتلوها على أنهم استقروا في كل منطقة تسمح أرضها باستثمارها؛ وكانت كثافة الزراعة في المنطقة الجنوبية هي العامل الكبير الذي ساعد على استمرار الازدهار إلى مدى حتى بُعيد سقوط الدولة النبطية. وهذه المنطقة الجنوبية - وذلك هو موطن الغرابة - تكتظ بكسر الفخار النبطي المتميز الذي لا تخطىء عين العارف نسبته إلى الأنباط، بينما تكاد المنطقة الشمالية تخلو من

تلك الكسر، وإلى الجنوب من خط يمتد من شمال البحر الميت حتى مادبا هناك وفرة غزيرة جداً في كسر الخزف، وقد يوجد بعضها في أماكن متباعدة شمال ذلك الخط مثل جرش وتل الذهب الغربية، وقد تكون هنالك كميات من الكسر في أماكن أخرى (وتفسير ذلك أن القوافل النبطية لم تكن تتوقف عند مادبا وإنما كانت تتجاوزها، وأن التجار الأنباط كانوا يحملون معهم من الصحون والأدوات الفخارية الأخرى ما يلزمهم في رحلتهم). ولكن خلو المنطقة الشمالية من الأردن من الكسر الفخارية ظاهرة تستدعي التوقف، وبخاصة ونحن نعرف أن للأنباط أملاكاً أخرى في سورية تقع إلى شمال تلك المنطقة، فهل في الحورانية كسر فخارية نبطية كالتي نجدها في جنوب شرق الأردن؟ لم يحاول أحد حتى اليوم أن يجيب على هذا السؤال بالقيام بمسح أثري. ذلك أن علماء الآثار الذين عملوا في تلك المنطقة لم يكونوا يعرفون السمات المميزة للفخار النبطي، ولا كانوا يعلقون أهمية على انتشار الكسر الفخارية، ولذلك فإن القول بعدم وجود كسر فخارية هنالك إنما هو قياس على ما تم فحصه في الجزء الشمالي من شرق الأردن. وحسبنا هنا أن نقف عند نموذجين من مواقع الشمال الأردني وهما أم الجمال وخربة السمرة.

فالموقع الأول من هذين ـ وهو أم الجمال ـ كان مركزاً تجارياً على بعد ٢٤كم إلى الجنوب الغربي من بصرى. وتشير الدلائل إلى وجود استثمار زراعي في تلك القرية تدل عليه الأحواض والصهاريج الكثيرة، وفيها نقوش نبطية تتحدث رغم صمتها عن حضور نبطي واضح. ولذلك فمن المتوقع أن توجد فيها كسر فخارية نبطية، غير أن البحث عن فخار رقيق مرهف مطلي ـ مما يسم الخزف النبطي بالتمييز ـ لم يتمخض عن شيء. وعلى بعد ٢٥ كم إلى الجنوب الغربي من أم الجمال تقع خربة سمرة، وهي موقع كان عامراً في الأيام الرومانية والبيزنطية والعربية، وكان العهد الروماني بالنسبة لها أزهى العهود، ولذلك نقدر أنها كانت مركزاً تجارياً

مهماً، كما كانت مسرحاً لتربية الضأن والماعز والجمال، وفيها أحواض وصهاريج عديدة كبيرة توفر الماء لتلك القطعان. ولكن لدى البحث عن كسر فخارية نبطية فيها لم يوجد شيء من ذلك. مثل هذا الاخفاق في هذين الموطنين قد يدفع إلى القول بأن المواقع النبطية في حوران وجبل الدروز أيضاً لا تحتوي كسراً فخارية، وهنا يثور السؤال: لماذا لا توجد مثل تلك الكسر رغم الوجود النبطي هنالك، حيث بنى الأنباط المعابد وأقاموا التماثيل؟ إن القول بأن الأنباط لم يستعمروا تلك المنطقة بمستوطنين كثيرين منهم لا يكفي لتعليل تلك الظاهرة، إن صحت. ويبقى السؤال دون جواب مقنع.

على أي حال ومهما أخفقنا في رسم صورة دقيقة وواضحة للعلاقة بين الدولة النبطية وبين منطقة حوران ـ وبخاصة حوران الجنوبي ـ خلال الحقب المتعاقبة، فإننا لا نستطيع إلا أن نسلم بأهمية تلك المنطقة للأنباط وخصوصاً حين نجد الملك رب ايل الثاني يتخذ بصرى عاصمة له، ولكن تحول المملكة إلى ولاية رومانية قد أجهض إفادة الأنباط من موقع العاصمة الجديدة بسرعة وألقى بالفوائد كلها في يدي حاكم جديد.

وفي الجنوب لم يتجاوز امتداد الأنباط مدينة الحجر، والشاهد على ذلك أن ما يقع إلى جنوب تلك المنطقة يبرز فناً معمارياً وعادات في الدفن ليست كالتي كانت لدى الأنباط، حتى العلا كانت خارج التبعية السياسية، وكذلك خيبر، وإن وجدت فيها نقوش نبطية، ذلك أن الحجر ـ لا العلا ـ هي التي كانت المركز التجاري الجنوبي لدى الأنباط، وكان دور العلا في ذلك ضئيلاً، ولم يكن الأنباط في هذه الوجهة الجنوبية بحاجة إلى مخافر مسوّرة لأنهم كانوا يستطيعون ـ فيما يبدو ـ استرضاء القبائل القاطنة إلى جنوبهم بطريقة أو بأخرى.

يتبين مما تقدم أن المناطق التي شملها الامتداد النبطي كانت ثلاث

مناطق رئيسية. أنشأوا لهم فيها مراكز ومواقع استيطانية تعد بالمئات، وهذه المناطق هي:

١ ـ منطقة النقب، وقد أشرنا إلى أهم مراكزهم فيها وهي عبدة وكرنب ونصتان وخلصة.

٢ ـ منطقة جنوبي سورية وكانت أهم مراكزهم فيها ـ بالإضافة إلى بصرى ـ هي سيعا، وفيها بقايا كبيرة من خرائب نبطية منها مسرح صغير ومعبد مخصص لذي الشرى وعدد غير قليل من النقوش، وكسر زخرفية، ويبدو أن سيعا كانت مركزاً دينياً. وغير بعيد عنها تقع السويداء، وكانت من أهم المراكز النبطية. وتستمد أهميتها مما تبقى فيها من دلالات معمارية ودينية، ففيها المباني والمذابح والمنشآت التعبدية الأخرى التي لا تزال تتطلب جهود علماء الآثار. غير أن بصرى تظل أكبر المراكز النبطية في حوران، والبقايا المعمارية النبطية فيها كثيرة العدد.

٣ ـ المنطقة الواقعة شرقي نهر الأردن وتمتد جنوباً لتشمل جانباً من شمال الحجاز وبالإضافة إلى بترا ـ أهم مركز نبطي هنالك ـ فإنها تحتوي على أكبر نسبة من المراكز النبطية، ومن أهمها المعبد النبطي الذي اكتشفه غلوك على جبل التنور إلى الجنوب من وادي الحسا، وفي هذا المعبد تبرز عبادة أترعتا (أترغات) على أتمها، وقد أضاف اكتشاف المعبد معلومات جديدة عن عقائد الأنباط وشعائرهم وقدراتهم الفنية، وفي الموقع المسمى ذيبان وجدت كميات كبيرة من الخزف النبطي، كما تم الكشف عن معبد نبطي ـ روماني. ويقع وادي رم ـ وهو مركز مهم أيضاً ـ عند نهاية شرق الأردن وبداية الجزيرة العربية، وفي الوادي منشآت نبطية، من أهمها معبد نبطي لا يزال في حال جيدة نسبياً، وهو نبطي خالص في فنه المعماري ويعود في تاريخه إلى القرن الأول

الميلادي، وفي منطقة المعبد عشر على فخار رقيق مطلي يؤكد هذا التاريخ التقديري. وفي عين الشلالة إلى الجنوب من منطقة ذلك المعبد وجدت منشآت تعبدية نبطية، وفي ذلك الموقع نفسه وجد نقش يحمل اسم رب إيل الثاني. وقد تقدمت الاشارات إلى القبور النبطية المجوبة في الصخور بمدائن صالح (أو الحجر). وهي من أهم المواقع النبطية جنوباً.

وهناك أعداد كبيرة من المواقع الأخرى مثل ذات راس وقصر ربة وخربة المشيرفة وخربة براك وكلها في شرقي نهر الأردن، بل يضاف إلى هذه المئات من المواقع التي توجد فيها كسر خزفية نبطية وكسر زخرفية ونقوش وبقايا معمارية وشواهد أخرى، ولكن تبقى بترا أهمّ ما خلفه الأنباط من مواقع.

وليس في الامكان هنا أن نفصل القول في طوبوغرافية تلك المدينة ومعالمها البارزة، فذلك موضوع قد خصصت له مؤلفات كاملة[1] ولكن تكفينا لمحة موجزة لا يخل إدراجها هنا بالسياق العام في هذا الكتاب:

لقد توفرت لبترا عدة خصائص رجحت اختيارها مثابة للسكن والعبادة والتجارة، ومن أهم هذه الخصائص وجود عين موسى عند مدخلها ومعها صهاريج الماء المحفوظ، ووقوعها عند ملتقى الطرق التجارية، وتوفر الأراضي الخصبة الصالحة للزراعة والرعي من حولها، ومنعة موقعها وسهولة اتقاء الأخطار التي قد تحف بها، اعتماداً على تلك المنعة. وتقع المدينة على بعد ستين ميلاً من العقبة، وترتفع بحوالى ٢٧٠٠ قدم عن سطح

---

(١) من المؤلفات المهمة في هذه الناحية كتاب كنيدي، وكتاب براوننغ ومقالات هورسفيلد في (Q D A P) (انظر كشاف المصادر والمراجع) ومن قبل هؤلاء كتب دالمان وبرونو ودوماسزفسكي.

وأفاض جميعهم في وصف جغرافية المدينة ومعابدها وبيوتها وقبورها .. الخ.

البحر وتحيط بها سلسلتان من المرتفعات يفصل بينهما مقدار ميل، والمدخل إليها للقادم من الشمال شق ملتو ضيق يسمى «السيق» يفضي إلى وادي موسى وهو الوادي الذي يؤدي إلى موقع المدينة القديمة ثم يدور حول الجبل المسمى بالحبيس ويلتقي بوادي برًا ويتغلغل في السلسلة الغربية من خلال فتحة تسمى السيغ. وهناك معالم بارزة في السلسلتين المحيطتين بموقع المدينة منها أم البيارة والحبيس والدير والخبثة والمذبح، وعلى مسافة إلى الجنوب تبرز قمة جبلية تسمى صبرة.

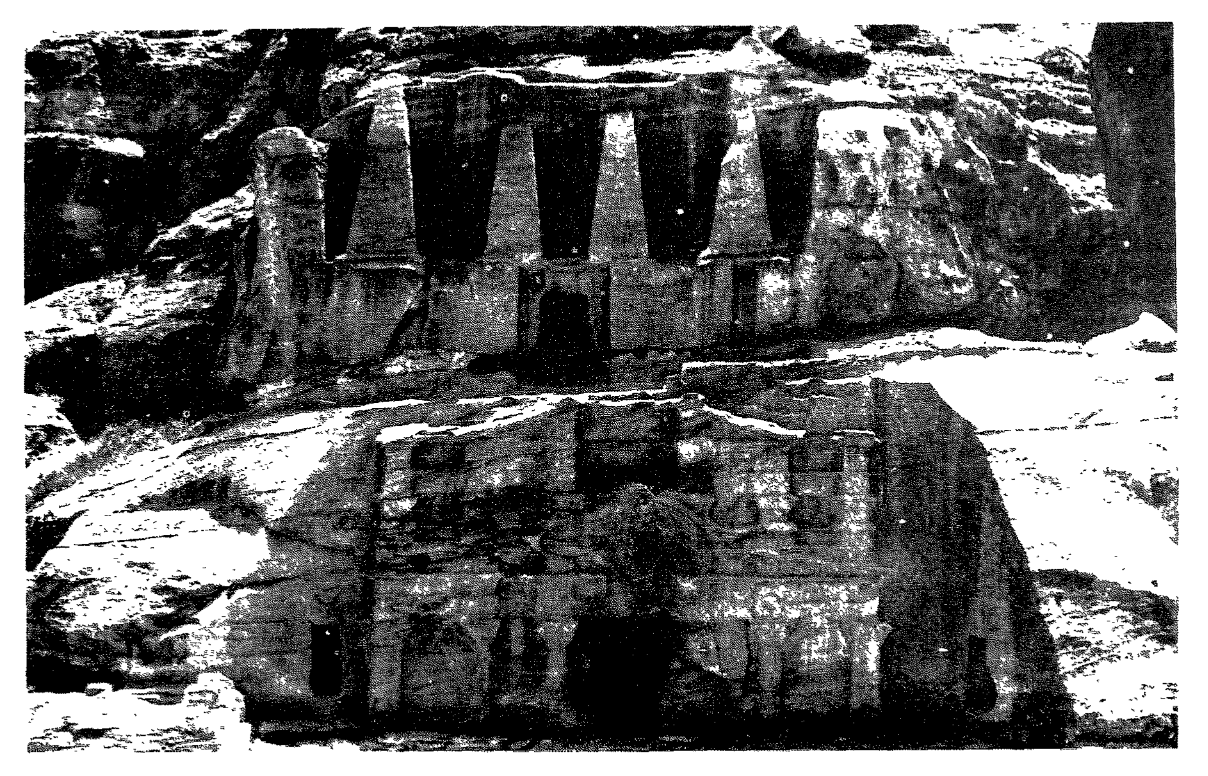
والسيق إذا ترك مفتوحاً تدفقت فيه المياه على نحو قويّ، ولهذا كان من الطبيعي أن يبنى عند فوهته سد لتحويل الماء، وأن يتم تحويل الماء من خلال نفق ما يزال موجوداً حتى اليوم. وفي مواجهة السد مجموعة من المسلات الصغيرة المنحوتة في الصخر، وعليها نقوش أحدها يتحدث عن شخص عاش في الرقيم (وهو فيما يبدو الاسم النبطي لمدينة بترا)[1] ولكنه مات في جرش ودفن فيها. وعلى الجانب الأيسر من السيق ضاحية تسمى المضرس (أو المدرس) وهو اسم من الأسماء القديمة التي استعملها الأنباط، وورد ذكره في أحد النقوش مرتبطاً بذي الشرى، وكلما توغل المرء في السيق وجده قد أصبح أضيق وأعمق، وتقاربت الشعاف في الأعالي حتى تكاد تلتقي في بعض المواطن، وحيث يعمق السيق توجد غرف منحوتة على واجهتي السلسلتين. فإذا انطلق المرء من عتمة السيق واجهه ما يمكن أن يعد أبرز معلم من معالم بترا وهو الخزنة، البناء المنحوت بعمق في الصخر،

---

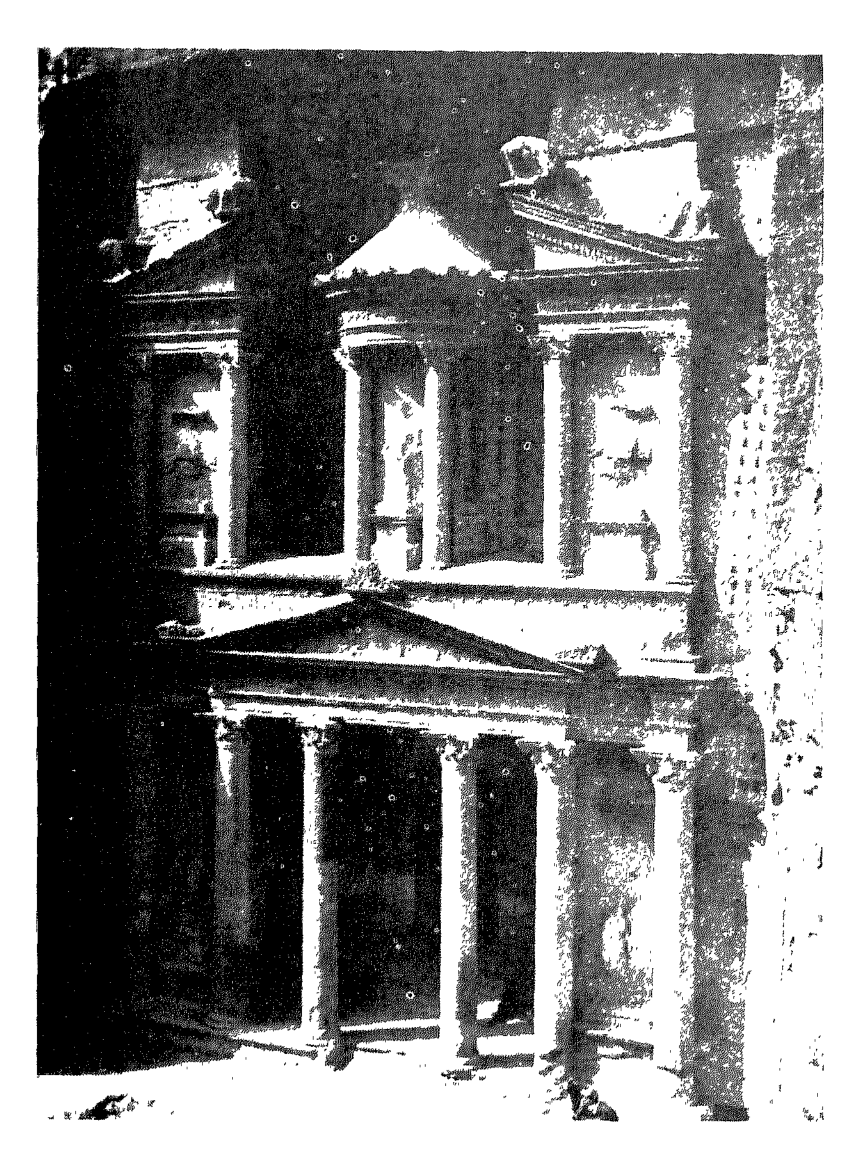
(١) إن إطلاق اسم «الرقيم» على بترا ورد عند يوسيفوس وغيره من المؤلفين. وفي المصادر الصينية أن تجارة الصين كانت تصل إلى مكان يدعى «لي - قن» (Li-Kan) وهو يذكر بلفظه «رقيم» فإذا صح التقدير فهو اسم أقدم من بترا الذي ليس سوى صيغة اغريقية؛ وذلك يرجح أن تجارة الصين كانت تجيء عن طريق البحر الأحمر، بالإضافة إلى مجيئها خلال الخليج. وعلى هذا تكون سلعة الحرير من أهم السلع الصينية التي كانت تصل بترا، وتذهب إلى الصين الدمقس والمطرزات، كما كان يذهب إلى الصين الحنا والزجاج واللؤلؤ والمرجان والسجاد والذهب والفضة .

وواجهتها في سعة ٩٢ قدماً، وتبلغ في الارتفاع حتى نهاية الجرَّة في أعلاها (والجرة هي التي أوحت بتسميتها الخزنة) ١٣٠ قدماً، وبين العلماء جدل حول تاريخ هذا الأثر المهم فبعضهم يرجعه إلى عصر هدريان (حوالى ١٣١ب.م.) وبعضهم يراه أقدم بكثير من ذلك، وأغرب ما في الخزنة من الناحية المعمارية اشتمالها على تيجان أعمدة كورنثية، وهذا ما يقوّي الافتراض بأن الذين بنوها كانوا معماريين غرباء. ولكن ما هي الخزنة؟ الأغلب أنها معبد أقيم في رأي بعضهم للربة مناة، وأقيم في رأي آخرين للعزى، وذهب فريق ثالث إلى أنه معبد ـ ضريح لأحد ملوك الأنباط، ولكن ليس ثمة ما يدل على أن الخزنة اتخذت ضريحاً. وفي الخزنة غرفة وسطى مساحتها أربعون قدماً مربعاً، وهي عاطلة من كل زخرف وتفضي إلى غرف صغيرة على جانبيها، منها غرفتان كثيفتا الزخرفة، وسطوح الحجارة فيها ليست ملساء إنما هي واضحة الخشونة، وبعد الخزنة تبدو معالم أثرية كثيرة، أكثرها قبور، إلا أن أهم معلم بينها هو الطيطر (المسرح) وفيه ثلاثة وثلاثون صفاً من المقاعد نحتت في الصخر، وبعده بمسافة قصيرة يصل المرء إلى وادي بترا الواسع وفيه معالم أثرية قد نحتت على الجانبين، فعلى اليمين جدار الخبتة الكثيف وعلى اليسار سلسلة العطوف، وهناك ممرّ رملي يستدير حول العطوف ويتجه غرباً حتى يصل إلى بداية الشارع المسقوف. وللمرء أن يختار هنا الاتجاه الذي يسلكه، فإما أن يستمر قدماً حتى يصل إلى قصر البنت أو يختار المنحدر الواقع على اليمين ويصل إلى ما يسمّى القبور الملكية.

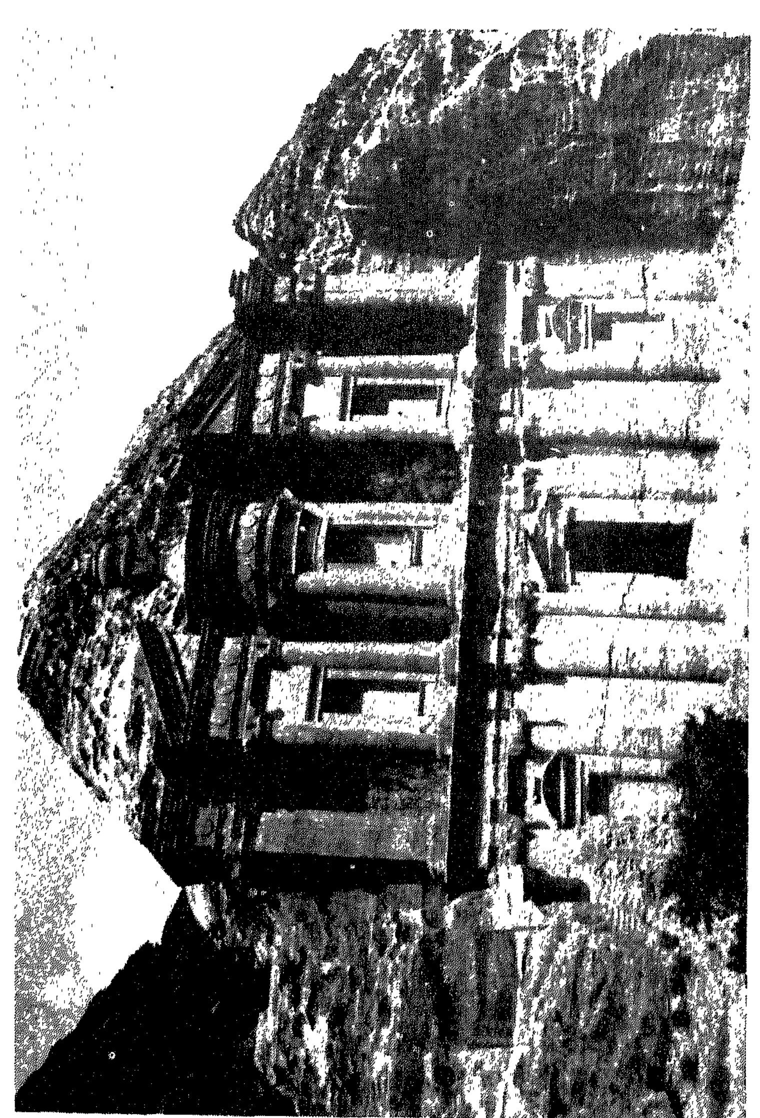
وعند الاقتراب من الشارع المسقوف تبدو نافورة ماء عامة تقع عند ملتقى وادي موسى بوادي متاهة (والوادي الثاني هو الذي تسلكه المياه المحولة من لدن فوهة السيق) وقد أعادت دائرة الآثار الأردنية (سنة ١٩٦٠) نصب عدد من الأعمدة التي كانت تقوم على جانبي الشارع المسقوف، وهنا يبدو لعيني الزائر مبنى اصطلح على تسميته «معبد أترعتا» (أترغات) وهو



الشكل (٥) : قبر المسلات



الشكل (٦) : واجهة خزنة فرعون



الشكل (٧) : الدير، اكبر واجهة منحوتة في الصخر.



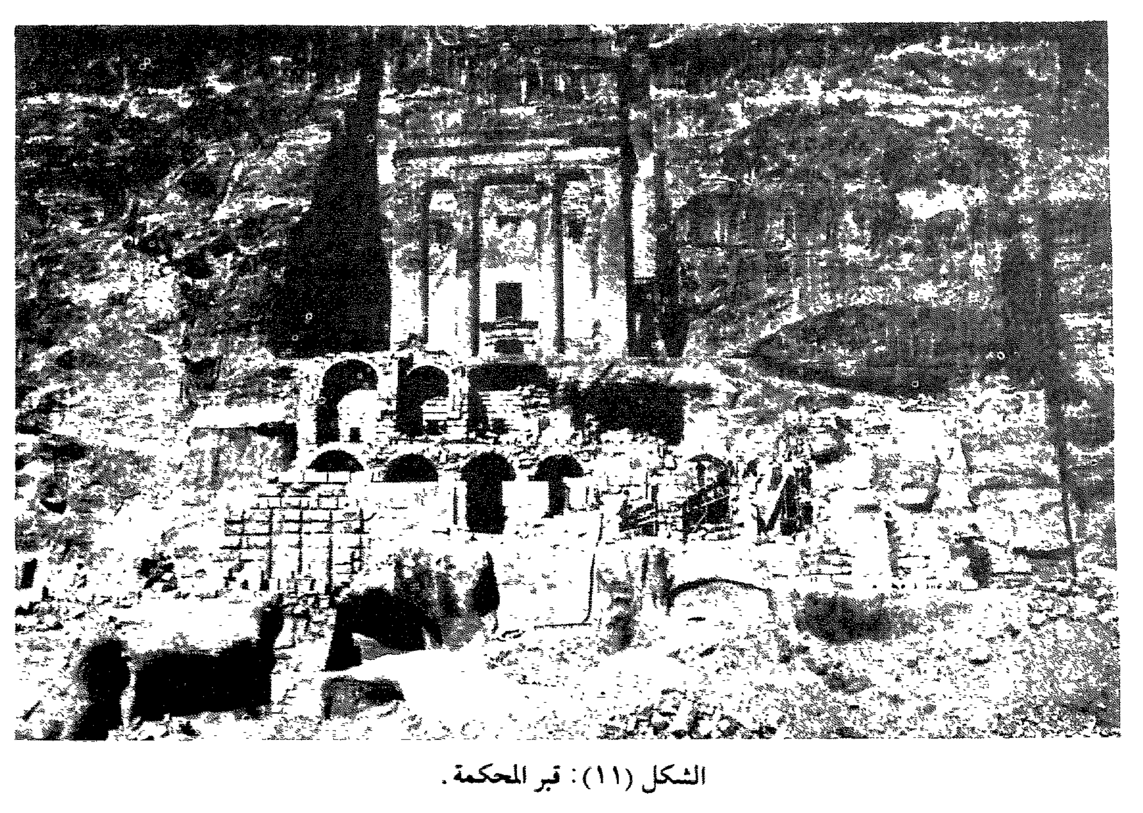
الشكل (٨): قبر الجرة.



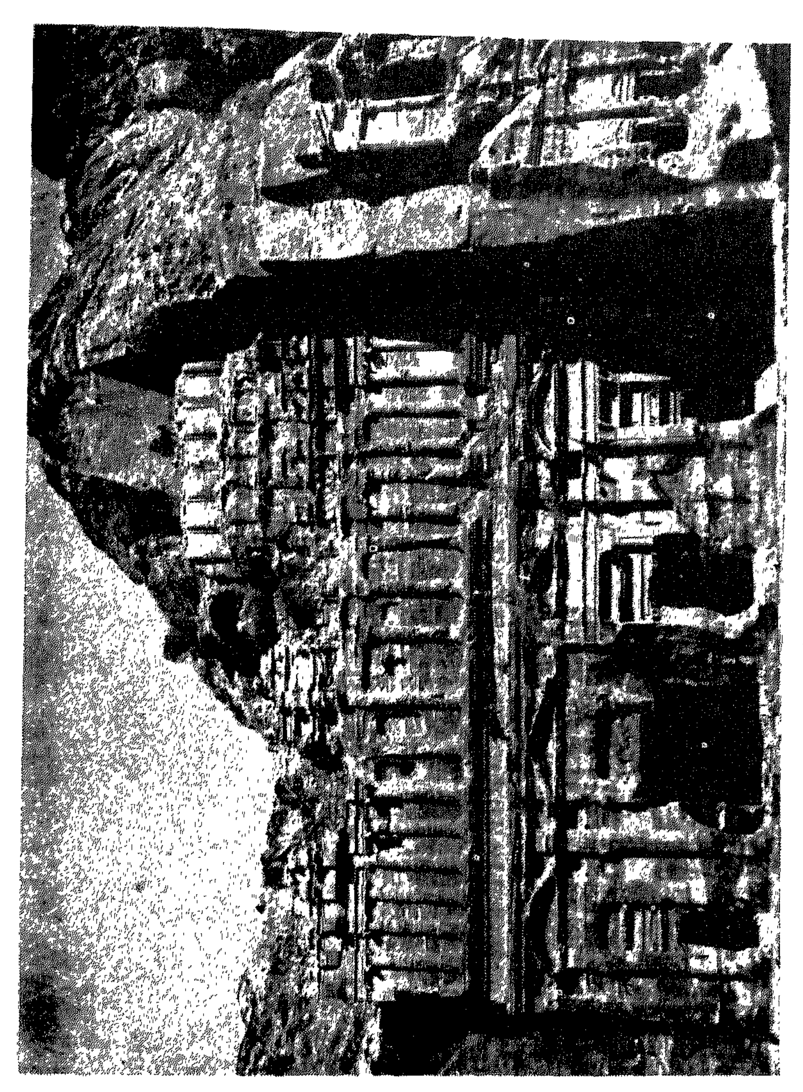
الشكل (٩): المسرح الرئيسي من عهد حارثة الرابع.



الشكل (١٠): واجهات قبور من النوع البسيط المزخرف بشريطين (بترا).



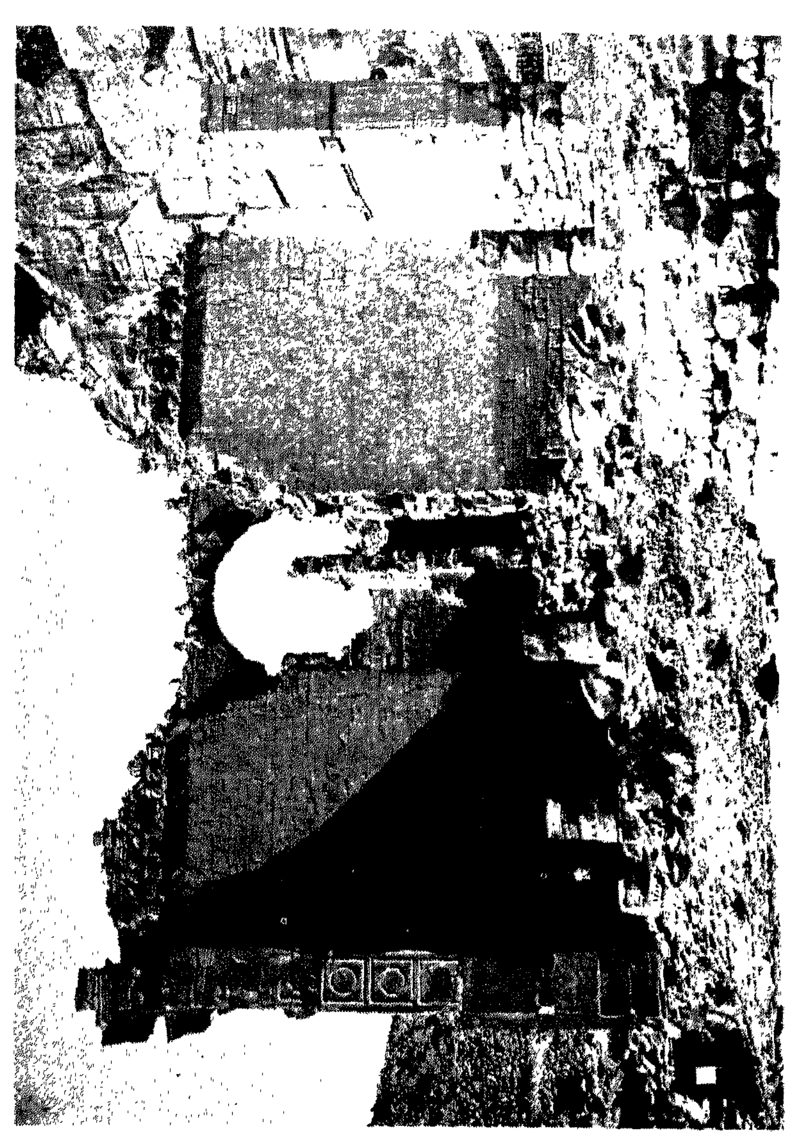
الشكل (١١): قبر المحكمة.



الشكل (١٢) : قبر القصر.



الشكل (١٣): بوابة النصر في ذكرى تراجان (١٠٦ ب.م.).



الشكل (١٤) : الواجهة الأمامية لمعبد قصر البنت.



الشكل (١٥) : معبد الأسد المجنح (اكتشفه فليب هاموند).



الشكل (١٦) : الثلج.

مكون من جزءين رواق مسقوف وَمَقْدَس (Cella = قلاية) ذي أعمدة، يصل بينهما برطل (Portal) متوسط، وأعمدة القلاية ذات تيجان نبطية كلاسيكية، وفي جدرانها كوًى فيها تماثيل صغيرة، وفي النهاية الشمالية من القلاية مصطبة مرتفعة يحيط بها اثنا عشر عموداً، أربعة من كل جانب، وتؤدي إليها سلسلتان قصيرتان من الدرج. وداخلها مزخرف كله-برسوم بعضها يتخذ رموزاً يونانية ـ رومانية كالدلافن والأكاليل.

أما قصر البنت الذي يتبدّى بعد ذلك فهو منشأة نبطية تعود في تاريخها ترجيحاً إلى عهد عبادة الثاني (٣٠ق.م.-٩ق.م.)، وقد بني (القصر) على نطاق هائل من حجر رملي ملون متجه في محوره شمالاً وجنوباً، ويبدو في ظاهره مربعاً، شديد المتانة، وداخله مزخرف بجص كثيف التكوين ويقع على منصة عالية تبرز حوافيها بروزاً كأنها تؤطر البناء بأفاريز، وتتخلل الأفاريز وريدات لكلٍّ وريدة صفان من البتلات.

من هنا تبدو الصخرة التي تسمى «الحبيس» ويسميها بعضهم «القلعة» وهي صغيرة إذا قورنت بأم البيارة، ولم يبق اليوم أثر للقلعة النبطية هنالك، ولكن سطحها مليء بكسر الفخار النبطي والخرائب الموجودة على قمتها تعود إلى قلعة صليبية. وتحتوي الصفحة الشرقية من الحبيس على معالم أثرية طريفة من أبرزها ما سماه كنيدى «القبر ذا النوافذ» وسماه غيره «معبد قوس قزح» وهو فريد بين المعالم لأن داخله مزود بسلسلة من النوافذ لدخول الضوء بدلاً من الاعتماد على دخوله من الباب، وفي داخل ذلك المبنى قاعة متوسطة (٣٣ × ٢١) وليس فيه قبور، ولا يعرف الغرض من بنائه.

أما أم البيارة فهي القمة الشاهقة الممتنعة التي لجأ إليها الأنباط ـ في الأرجح ـ حين هاجمهم جيش أنتيغونس السلوقي، وعلى سطحها المنبسط اكتشفت كسر خزفية تعود إلى ما قبل العهد النبطي، والأرجح أنها

إيدومية وقد ذهب بعضهم إلى أنها «سلع» المذكورة في كتاب يهود، ولكن ذلك أمرٌ قائم على التخمين. ويسلك الصاعد إليها طريقاً ملتوياً يبتدىء من الجنوب الشرقي، وقد حاول الأنباط تيسير الصعود ببناء سلسلة من الدرج وَجَوْبِ دهاليز في الصخر، وهذا لا يعني أن قمة أم البيارة أصبحت ميسرة للسالك، لأن إغلاق المعبر عند بدايته، ووضع العراقيل أمام الصاعد عند أية نقطة فيه أمر ممكن، وقد انهدم جانب من هذا الممر يضع السالك على مشارفِ مهواةٍ سحيقة، ولهذا كان لا بدّ لمن يحاول الصعود أن يزحف زحفاً أو أن يُدْفَعَ دفعاً إلى الأعلى. وقمة أم البيارة مستوية مسطحة تمثل شبه منحرف، وأقصى ارتفاع لها من الزاوية الشمالية الغربية ٣٧٧٢ قدماً فوق سطح البحر، وفي القطاع الشمالي الشرقي منها وهو المطلّ على محيط المدينة، توجد كِسر فخار نبطي بكميات وفيرة بينها بعض أختام فخارية، وفي هذه الجهة من الهضبة يتغير الانحدار التدريجي فيصبح حاداً يطل على الوهدة الشرقية، وعلى الشعاف والمنحدر يبدو لعين الرائي ثلاثة عشر مبنىً، كل واحد منها يطلّ على العاصمة دون أن يحجب رؤيتها عن المباني الأخر، وخصائص هذه المباني ووفرة الفخار النبطي الفائق تقول إن المكان لم يكن وحسب ملجأ للقواعد من النساء والشيوخ والأطفال كما يقول ديودور، ولا ريب في أن هذا الملجأ قد شهد تطوراً غير قليل بين ٣٠٠ق.م. و ١٠٠ ب. م. أي أنه تحوّل من ملجأ يعوذ به الناس عند الضرورة إلى حصن حصين مليء بالمسؤولين وبالمراقب والرقباء، وهذا أمرٌ لا يمكن تصوره إلا إذا توافر الماء الكافي، وهو قد توافر حقاً في صورة أحواض أو جَوابِ ضخمة عميقة، ومن أجل ذلك سمي المكان «أم البيارة»، وتقع تلك الأحواض على الجانب الشمالي الشرقي والجانب الشرقي المنحدر من الهضبة، مما يسهل جريان الماء إليها، خلال قنوات نحتت في الصخر لتلك الغاية، وعلى الصخور نقوش ورسوم من أبرزها صور بقر الوحش ذي القرون الطويلة الحجناء، يليها صور للصيد بالصقور، وهناك صور غير قليلة للجمال، وصورة لفرس يمتطيه فارس،

وصورة طاووس ذي ذيل طويل و «مهاميز» حادة في رجليه وقنزعة مرتفعة، ولعلّ أكثر هذه الصور ينتمي إلى ما بعد العصر النبطي.

وتصلح منطقة قصر البنت أن تكون منطلقاً لرحلات في اتجاهات مختلفة: من هنا يمكن الذهاب إلى الدير وهو بناء ضخم تبلغه إذا أنت اخترقت وادي موسى عبر فوهة وادي سيغ، فتصل إلى وادي الدير نفسه، وعلى رأسه يقع ما يسمى «قبر الأسد» وهو معلم يرجع إلى العهد الروماني المبكر، ذو إفريز منحوت وتيجان عاطلة، وفيه أسدان متقابلان على جانبي الباب، لا يكادان يريان إلا بصعوبة بعد ما أدركتهما يد البلى وعوامل التعرية، وإلى يسار «قبر الأسد» نصب لذي الشرى على هيئة كتلة حجرية. والدير نفسه مبنى بالغ الضخامة لا يبلغ إلى مستوى الخزنة من حيث الفن المعماري، وهو منحوت في لحف جبل، وفيه غرفة كبيرة واحدة (٣٨ × ٣٣) يضيئها النور الداخل من الباب.

وفي اتجاه آخر من قصر البنت يرى المرء ما يسمّى عمود فرعون، ومن بعده على طول الممر المؤدي إلى وادي فرسة تقع «كتوتة» ولعلها مبنى كان يملكه شخص ثري، وعلى مقربة منه كومة ضخمة من القمامة التي تلبدت على مرّ الزمن.

وهنالك معالم كثيرة أخرى، ولكن التصدي لها يخرج بنا إلى الإسهاب، وحسبنا هنا أن نلخص بعض الحقائق العامة حول تلك المعالم دون الدخول في التفصيلات، فنقول:

إن أكثر المنشآت النبطية انتشاراً في بترا هي الدفنية القبورية ويليها التعبدية، وأقل الثلاثة الأنواع المنشآت العامة.

والمنشآت القبورية أيضاً تتمثل في نماذج مختلفة فمنها: القبر ذو الواجهة والقبر المجوب في الصخر، والقبر الصهريج. فمن النوع الأول خزنة فرعون وما هو أدنى منها فنياً بكثير وهو الأغلب على معالم بترا

المهمة . وقد قسمها الدارسون في فئات معمارية تدق على غير المتخصص في هذا المضمار . وتنتشر القبور المجوبة في كل أرجاء المدينة ، وهناك ستة وعشرون قبراً على شكل صهاريج يراها الزائر أول ما يقترب من السيق .

وأما المنشآت التعبدية فهي أيضاً عديدة ومتنوعة في طابعها فمنها الأماكن المرتفعة (التي سنطلق عليها اسم المعلّيات) والرموز التعبدية ، فأما المعلاة فإنها نموذج موجود في أماكن مختلفة ، ومنها المعلاة الكبرى التي قد تتخذ نموذجاً لهذا النوع من المنشآت ، وفيها يقع المزار في قمة جبل يسمى المذبح مشرف على المدينة ، ويصعد الصاعد إليه قبل أن يبلغ الطيطر الرئيسي لدى القدوم من السيق ، على سلسلة من درج ، أو قد يصعد إليها من وادي فرسة حيث يشير إلى ذلك نقش لذي الشرى والعزى ، وقد هيئت المعلاة بتسوية سطح الجبل ، وإزالة الصخور الزائدة لاقامة الوسائل التعبدية الضرورية ، وهناك منصة تلتف على ثلاثة جوانب ، ومنطقة المذبح ترتفع قليلاً عنها ، وتشغل الجانب الغربي ، وقد جعل على اليسار مذبحان ، هيىء أحدهما لسفح الدم ، ويوصل إليهما بواسطة درج ضيق ، وإلى جوار منطقة المذبح نحت في الصخر أجرانٌ متعددة لعلها للتطهر الشعائري ، وحجيرة تحت المذبح المخصص لسفح الدم لحفظ الأدوات التعبدية . وتكثر الرموز التعبدية في بترا وضواحيها ، وهي أحياناً صغيرة يتجاوزها النظر وأحياناً تملأ جداراً كاملاً ، وفي منطقة السيق بخاصة عدد وفير منها ، وأهمها الأنصاب المستطيلة التي تمثل ذا الشرى وقد نحتت بارزة في كوى ، دون أن تتخذ مثالاً إنساني التكوين (وهذا ما سنقف عنده لدى الحديث عن الدين) . وكذلك تكثر في بترا المذابح ذات القرون والأرجح أنها مذابح لاحراق البخور ، كما توجد منحوتات مسلّية الشكل ، ولكنها أقلّ من أنصاب ذي الشرى ، وكان الأنباط يسمون الواحدة منها « نفش » لأنها كانت تمثل فيما يبدو شواهد قبور أو أنصاباً تذكارية .

وأما المنشآت العامة فمن أهمها الطيطر الرئيسي وقصر بنت فرعون ومعلاة كونواي (سميت باسم أغنس كونواي التي تزوجت من بعد هورسفلد) وقد دلت البحوث على أن الطيطر والقصر من بناء الأنباط وانهارت المزعومات التي كانت تنسبهما إلى غيرهم . وتلحق بالمنشآت العامة أيضاً المنشآت المائية ومنها الأحواض على جبل الخبتة والحوض الكبير القائم إلى جوار ما يسمى « قبر الجنية » ، وهذه كلها برك منحوتة في الصخر .

وفي بترا معالم أثرية لا تنتمي إلى العهد النبطي ، وإنما هي ثابتة النسبة إلى العهد الروماني ، ومنها قبر الجندي الروماني ، وقبر الحاكم الروماني سنتيوس فلورنتينس وهو عند الحافة الشمالية الشرقية لجبل الخبتة .



- ٦ -

النشاط الاقتصادي

إن اختيار رب إيل آخر ملك نبطي لبصرى الشمالية وهجره لبترا في الجنوب يقف موقفَ المناقض لذلك العمل الدؤوب الذي قام به حارثة الرابع في مدّ العمران النبطي وتعميقه جنوباً بحيث يشمل مدائن صالح ، ومعنى ذلك أنه في أقلّ من ستين سنة في القرن الأول بعد الميلاد ، كان مصير ذلك الاتساع جنوباً إلى التقلص والانحسار . لقد كان وراء ذلك التغيير الجذري كله تحوّل طريق التجارة من أيدي الأنباط إلى أيدي الرومان ، ومن قوافل البر إلى سفن البحر ، ومن موانىء البحر الأحمر الشرقية إلى موانئه الغربية ، ليس هذا وحسب ، بل إن طريق التجارة الآتية ما بين النهرين هي التي تصدرت جميع الطرق أهمية ، فأخذت المتاجر تمر من تدمر في طريقها إلى دمشق وحمص ، كما أن هَجَر (الجرعاء) على ساحل الخليج لم تكن بحاجة إلى إرسال متاجرها لبترا، بل كانت تبعث بها إلى دومة الجندل ومن هناك ينقلها الأنباط أنفسهم إلى أم الجمال ثم إلى بصرى ، لذلك أصبحت بصرى أو تدمر الوريث الطبيعي لبترا .

وإذا لحظنا أن بداية التراجع في ازدهار الدولة النبطية إنما كانت مقترنة بالتراجع في التجارة أدركنا أن الاقتصاد الزراعيّ والصناعي لم يستطيعا أن ينقذا الدولة من الانهيار ، وأن عصب البقاء والاستمرار إنما كان هو التجارة . تلك حقيقة فاجعة إذا وضعناها إزاء ما بذله الأنباط من

جهد في تطوير الوسائل المائية والمنشآت الزراعية ، على وجه الخصوص .

إن هذه الحقيقة ـ أعني النظرة إلى التجارة على أنها عصب الكيان البشري النبطي ـ هي القاعدة التي يفسر على ضوئها كلّ توسع قام به الأنباط ، إذ لم يكونوا في توسعهم يندفعون بحوافز المجد السياسي أو الاعتزاز بالقوة أو حبّ السيطرة من أجل السيطرة نفسها، بل كان همهم الأكبر هو الاستيلاء على طرق القوافل المهمة التي تؤمن لهم نقل المتاجر بأمان ، ذلك هو ما فعلوه حين امتدوا شمالاً وغرباً في النقب وجنوبا نحو مدائن صالح ، ففي كل منطقة من هذه المناطق كانت هناك طريق تجارية رئيسية أو فرعية . ففي امتدادهم إلى الشمال سيطروا على « الطريق السلطاني » الممتد بين دمشق والبحر الأحمر ، واتجاههم نحو النقب فتح لهم الطريق إلى غزة والطريق خلال سيناء إلى مصر عن طريق غزة والعريش ، والذهاب في العمق الجنوبي ربطهم حين استولوا على مدائن صالح بطريق تجارة الخليج وبجنوب بلاد العرب . كذلك جعلتهم الحجر قريبين من الحوراء على البحر الأحمر وهذا يصلهم بالطريق البحرية إلى الهند .

وقد كان ذلك النشاط التجاري ـ فيما نتصور ونستنتج ـ سبباً في بروز مظاهر كثيرة في الحياة النبطية في مقدمتها العناية بتربية الجمال والحرص على القطران لهنائها، وتوفير المؤونة لها، والتزود بكل الأدوات التي تعين على « توضيب » البضائع والاحتفاظ بها ، وترتيبها وتصنيفها ، وبناء السفن والتدريب على شؤون البحر، وتهيئة كل ما تتطلبه الموانىء من معدات مثل مينائي الحوراء وأيلة . وتخصيص أماكن للتفريغ والتخزين ، ومن أمثلة ذلك تلك الكهوف الكبيرة في البارد بمدينة بترا ، فان حجومها تدلّ على أنها كانت مخازن إيداع ولم تكن مساكن ، أي أن البارد كان نقطة تفريغ وتعبئة واقعة خارج المدينة ، كما دفع هذا النشاط التجاري في طريقه حيوية « صناعية » وزراعية ورعوية وتعدينية ، ولم يكن الأنباط يكتفون

باستقبال السلع الخارجية وتسويقها .

يقول استرابو في وصف بعض جوانب من ثروتهم الحيوانية ، وسلعهم جملة ، محلية أو مستوردة :

« والضأن لديهم ذات صوف أبيض ، والثيران كبيرة ، ولكن بلادهم لا تنتج خيولاً ، وتقوم الجمال بتلبية خدماتهم مقام الخيل . . . وبعض الحاجيات مستوردة من بلاد أخرى . إلا أن حاجيات أخرى ليست كذلك وخاصة ما كان منها نتاجاً محلياً كالذهب والفضة ومعظم العطور ، فأما النحاس والحديد والثياب الارجوانية والميعة والزعفران ، والأدوات المزينة بالنقوش النافرة والرسوم والمصنوعات المقولبة فلا تصنع في بلادهم» (١٦/ ٤ : ٢٦) .

ويقول في الحاصلات النباتية لديهم :

« ومعظم البلاد مزودةٌ بضروب الثمار إلا الزيتون ، وبدلاً من زيته يستعملون زيت السمسم » .

ويذكر ديودور اتجارهم بالبلسم والقار (وهذا يعني قدم اهتمامهم بهذين العنصرين) أما الأول فكان يستخرج من أشجار البلسم بأريحا والثاني من البحر الميت .

ويتحدث ديودور بشيء من الاسهاب عن القار وطريقة جمعه فيقول :

«يرسل البحر الميت من وسطه كلّ عام كتلة من القار المتصلب تبلغ مساحتها أحياناً ٣٠٠٠٠ قدم مربع أو أزيد من ذلك ، وتبلغ في أقل الحالات أقلّ من عشرة آلاف قدم مربع بقليل ، وتبدو لمن يراها من بعد وكأنها جزيرة . . . ، ويظهر أن قذف

البحر للقار تبدو نذره قبل عشرين يوماً، إذ على بعد مسافات كبيرة من جميع جوانب البحر تنتشر ريح القار الكريهة، وتتغير ألوان الفضة والذهب والبرونز في المنطقة، ولا تعود إلى حالها الأول إلا بعد أن يطرح البحر القار. . . والبرابرة الذين يتمتعون بالسيطرة على هذه المادة يأخذون القار إلى مصر ويبيعونه للافادة منه في تحنيط الموتى، ذلك أنه إذا لم يخلط بعناصر أخرى عطرة فإن حفظ الجثث لا يدوم طويلاً. . . وعندما يطرحه البحر فإن الناس الساكنين حول البحر من جهتيه يحملونه كأنه غنيمة حرب، إذ بين الفريقين عداوة، وهم يجمعونه دون قوارب بطريقة خاصة، إذ يهيئون حزماً من رمث (طوف) ويلقونها في البحر ويمتطي تلك الحزم ثلاثة رجال، اثنان يجذفان بمجاذيف مربوطة إلى الرمث، ويحمل الثالث قوسه ليصدّ كل من يتعرض لهم من الجانب الآخر أو من يجرؤ على أن يتحرش بهم، فإذا اقتربوا من القار هجموا عليه بالفؤوس كأنه حجر هش، فيقطعون منه قطعاً ويحملونها على الرمث، وبعد ذلك يعودون أدراجهم».

ومن فوائد القار استعماله في تقوية المواد والأدوات لكي تصبح قادرة على أن تمسك الماء فلا يقطر، أو أن يتخذ عنصراً في التغرية، كذلك كان المصريون يستعملونه في صنع المجوهرات الزائفة وفي تلوين المعادن، وكثيراً ما كانوا يصنعون أقنعة مموهة بالقار لوجوه المومياوات أو يتخذون تمائم منه يضعونها مع المومياء لطرد العدو من القبر. أما استعماله في شؤون التحنيط مباشرة فقد استبعده بعض الباحثين ولكن آخرين وجدوا ذلك ممكناً.

ويقول ديودور في البلسم :

« في أحد الوديان في تلك المنطقة ينمو النبات المسمى بالبلسم ، وهو يعطي دخلاً كبيراً ، إذ لا يوجد في أي مكان آخر من العالم المعمور ، واستعماله عقاراً مهم جداً لدى الأطباء » .

ومثل هذه الأهمية هي التي حفزت كليوبطرة للاستيلاء على هذا المورد.

وقد كانت أسواقهم المحلية معرضاً للمنتوجات الحيوانية التي ذكرها استرابو من ضأن وبقر وجمال ، كما أن إنتاجهم لمصنوعات فضية وذهبية وعطرية ـ مما يذكره استرابو أيضاً ـ أمر محوط بالشك ، ولعل هذه العناصر كانت من جملة السلع التي يحملونها إلى الأسواق الخارجية ، فأما عدم وجود الخيل بينهم فأمر مستغرب ، إذ نجد للخيول صوراً على الأواني الخزفية ، وأما المواد التي يذكر استرابو أنها لم تكن تنتج محلياً كالأرجوان والحديد والنحاس والزعفران فيجب أن تعد في السلع التي عرفوا بنقلها إلى الأسواق الخارجية ، لأن استرابو يعني أن بلادهم كانت تفتقر إليها . غير أن ذكره للنحاس يدعو إلى التوقف إذ من المتعارف أنهم كانوا يستخرجون النحاس من وادي عربة وخاصة عند حمرا الفدان والصيرة ، حتى لقد عد بعض الباحثين ذلك أحد أسباب ثرائهم . وكان من مستورداتهم الخزف الهلنستي والروماني رغم أن الخزف كان من أهم ما ينتجونه ، وقد عثر على فرن لصنع الخزف في منطقة قريبة من بترا . كما عثر على آخر في عبدة بالنقب ، ومع ذلك فمن الصعب أن نقطع هل كان للأنباط صناعة مركزية للخزف وهل كانت أفران الخزف منتشرة في المملكة . وتدل الكسر الخزفية على أن الأنباط كانوا في العهد الروماني يستوردون كثيراً من أحمال الأختام الطينية والقناديل ، وقد حاكوا محلياً صناعة تلك القناديل الرومانية والأختام .

ولكن التجارة الخارجية هي التي كانت عماد ثروة الأنباط ، وتلك كانت تعتمد على السلع القادمة من جنوب بلاد العرب ، إذ كانت تلك السلع تباع بأثمان عالية ، وفي مقدمتها البخور الذي كان مادة ضرورية في حياة الناس وعباداتهم ، كما كان هو والمر يستعملان في تركيب العقاقير ، وكان المر وحده يتخذ في صناعة مواد التجميل والعطور وفي شؤون الدفن . ولا ينازع هاتين السلعتين ببعض القيمة من الحاصلات المحلية إلا البلسم والقار ، فأما الخزف الذي كان يتم صنعه على نطاق واسع فلا ندري كثيراً هل كان داخلاً في تجارتهم الخارجية ، أو كان سلعة تسوق في الداخل وحسب ، على أن مميزاته تجعل منه سلعة يرغب فيها ، وخاصة لرقته وإرهافه وطليه بالألوان الجميلة ، وباللون الأحمر على الخصوص ، وإن لم يكن الخزف المطلي بألوان أخرى أقل جمالاً ، وبالتفنن في الحجوم ، وبتزويده بالزخارف المناسبة لتلك الحجوم ، ويلفت النظر من بين الحجوم المتنوعة تلك السلاسل المتدرجة في حجمها من أحقاق المرهم التي كانت سلعة شائعة لتوافق الحرص على البلسم والمرّ . وتتوافر أعداد كثيرة من الأشكال الصغيرة التعبدية التي يدل إنتاجها بهذه الوفرة على أنها كانت تصنع للتصدير ، وأن بترا كانت مركزاً صناعياً بالإضافة إلى أنها كانت مركزاً تجارياً . وقد أبرز الأنباط مهارة في صناعة القناديل إبداعاً أيضاً لا حكاية للقناديل الرومانية وحسب . ففي هذه الصناعة يتجلى التنويع والتساوق في الحجم وحسن الزخرفة والأشكال ، ومع ذلك كانت قناديلهم أثقل وأقلّ رهافة من القناديل الرومانية .

وقد مارسوا بعض المصنوعات المعدنية فكانت نقودهم تسك من البرونز والأقل منها كان من الفضة ، ولكنهم فيما يبدو لم يستعملوا العملة الذهبية . ومن البرونز أيضاً صنعوا بعض التماثيل الصغيرة ، وصاغوا نماذج من الحلي الصغيرة ، واستعملوا الحديد أحياناً في بعض مصنوعاتهم . ومع أننا لا نجد في آثارهم أسلحة ، فإن توافرها في رسومهم يدلّ على أنها كانت

كثيرة الاستعمال سواء أكانت مستوردة أو مصنوعة محلياً . ويدل قطعهم للصخور وجوبهم لها على استعمال الآلات المعدنية اللازمة لذلك ، كما أن نشاطهم الزراعي يشير إلى استخدامهم الأدوات الصالحة للزراعة ، وهكذا يقال في الأواني المعدنية الصالحة للطبخ أو تلك التي لا يستغنى عنها في سياسة الدواب كاللجم وما أشبه . وقياساً على المجتمعات الأخرى لا بد أن نفترض أنهم طوروا أنواعاً أخرى من الصناعات مثل الحياكة والنسج وصناعة الأحذية والأدوات الموسيقية والأقواس والسهام وبعض الأسلحة الصغيرة .

وقد رفدوا بمنتوجاتهم الزراعية أيضاً ذلك النشاط الاقتصادي المتكامل . وتدل السدود المجوبة أو المبنية والقنوات والمجاري والجداول والأحواض والصهاريج المنتشرة في المناطق التي عمروها على مدى عنايتهم بالمياه وحفظها والتحكم بها في شؤون الري واستصلاح أراض كانت تعدّ خارج نطاق هذا النشاط العجيب ميؤوساً منها . أما الربعان التي تكتنفها السلاسل على السفوح والمنحدرات فإنها الدليل الساطع على محاولتهم إستثمار كل شبر من أرض صالحة للفلاحة . هل اقتبسوا هذا الوعي الدقيق بشؤون الزراعة والريّ عن أهل جنوب الجزيرة أو عن أهل ما بين النهرين ، أو وجدوا نماذج الاستقرار الزراعي لدى ناس كانوا يقطنون المنطقة التي ورثوا إعمارها ؟ ذلك أمر لا مجال فيه لجواب حاسم حتى اليوم . ولكن هب الأنباط اقتبسوا عن غيرهم بعض تلك المهارات ، فإنه يظل لهم القدرة على التطوير والتحسين فقد جعلوا الجوابي والأحواض بالضخامة التي نجدها في القطرانة ، وتحولت الغدران الصغيرة لديهم إلى قنوات مكشوفة أو مستورة ، وأقيمت الحواجز لمنع التربة من الانجراف والتحاتّ ولتوجيه المياه الوجهة المطلوبة ، وتوارى « الدبش الساذج » في البناء ليحلّ محله البناء بالجير والجص ، وظهر لديهم ما يسمى « تليلات العنب » وهي رجوم من حجارة تنصب على سفوح التلال في أنماط

متداخلة ، لها دور في نظام التحكم بالماء ، ولكن كيفية الإفادة منها ما تزال أمراً مجهولاً .

هذا التطوير في الهندسة المائية أدى إلى التوسع الزراعي ، ومن السهل أن نتصور أنهم مارسوا زراعة شتى أنواع الحبوب وأشجار الفواكه ، وبخاصة العنب ، وفي رسومهم تؤدي شجرة الكرمة والرمان دوراً مهماً في الزخرفة . وبالتضافر بين شتى هذه الضروب من المهارات التجارية والصناعية والزراعية بلغ الأنباط إلى مستوى اقتصادي رفيع .

- ٧ -
الحياة الاجتماعية

يتبين مما مرّ في الفصل الرابع أن نظام الحكم لدى الأنباط لم يكن مَلَكياً وحسب، بل كانت لديهم أسرة ملكية بمعنى أن الحكم كان متوارثاً في تلك الأسرة، ولعله ضمن حدود التاريخ المعروف للأنباط لم يخرج عنها. وهناك ما يستشف منه أن الأسرة المالكة كانت حسنة التماسك، إذ حين حاول شخص غريب عنها أن يستأثر بالحكم - وذلك ما نظن أن سلياً كان يمثله - لم تسمح له بذلك، وآثرت أن يعتلي العرش شخص من أفرادها، ولم تكتف بذلك بل أسبغت على ملوكها صفة الألوهية لتبعد عنها كل مدّعٍ طامح، وأحاطت الحاكم من تلك الأسرة بروابط أخوة، وفي ذلك بالإضافة إلى معنى المشاركة في المشورة وبعض المسؤولية، رغبة في إضفاء نوع من وحدة «هيئة الحكم» - إن صح التعبير، فزوجة الملك أخت له وصورتها تظهر مع صورته على النقود، ووزير الملك أخ له، وكلاهما بهذه الأخوة يشاركه المسؤولية أو جانباً منها في الحكم، فظهور صورة الملكة على النقد ليس تكريماً وحسب، بل هو يومىء إلى نوع من المشاركة، ومما يثبت أن أخوة «الملكة» لم تكن بالدم - وإنما برابطة الوفاق والمشاركة - أن الوزير كان يعد أيضاً أخاً للملك وليس هو بأخ له حقيقة. وهذا الحاكم الأعلى يسمى بالنبطية «ملكو» أو «منكو» وزوجته تسمى «ملكا» وقد يخاطب أحياناً بـ «مرنا» وهي لفظة تعني سيدنا أو ربنا.

وإذا كان استرابو قد قدم لنا صورة عن ديمقراطية الملك النبطي فذلك

أمر قد يعسر تصوره إذا نحن قرناه بالألوهية، ولهذا فإننـا قد نفتـرض أن المسلك الديمقراطي الذي يصفه ذلك الجغرافي إنما هو أصداء للتصرفـات التي كان يلتزم بها شيخ القبيلـة، حين لم تكن الملـكية شيئـاً بعيداً عن مواضعات المشيخة القبلية، أو نفترض أن تأليه الملك كان يتمّ بعد وفاته، وأنه قداسة يسبغها الأبناء والأحفاد ولا علاقة لها بسلوك الملك في حياته، وهذا هو المرجح. على أن طبيعة تلك الديمقراطية إنما يحددها أيضاً مدى ما كانت تتمتع به الملكة من حق المشاركة بإبداء الرأي، بحيث تحدُّ ولو قليلاً من التصرف المطلق الذي قد يمارسه الملك، كذلك يحددهـا مدى ما كان للوزير الذي كان يلقب ابتروبوس(Epitropos) من دور في شـؤون الدولة إذ إن الصورة المستمدة من الوزير الوحيد الذي نعرفه ـ أعني سلياً وزير عبادة ـ ليس من الضروري أن تكون صورة عامة لدور كل وزير، وهـا نحن حين نـؤرخ لعبادة وسليّ نتصور أن عبادة كان ملكاً ضعيفاً ـ أو هكذا نريده أن يكون ـ لكي نفسر حقيقة القوة التي كان يمارسها سلي. ومع أن لفظة «ابتروبوس» التي تعني الحـاكم التنفيذي أو الـوكيل القيم بالأمـور توحي بصلاحيات واسعة، بحيث تضيع الحدود الفارقة بين سلطـة الملك وسلطـة ذلك الحـاكم التنفيذي، فإن مدى استغلالـه لتلك الصـلاحيات يعتمد على التوازن السلطوي بينه وبين الملك، ولما كان سليّ نموذج الحاكم البعيد الطموح لم يكن دوره مقياساً عاماً لسلطة وزير الملك. غير أن أهم ما يرسم معالم تلك الديمقراطية وجود مجلس استشاري أو عدم وجـوده. وفي النصوص ما يشير إلى وجود مثل ذلك المجلس وهو الهيئة التي نفترض أن الملك كان يقدم لها حساباً عن أعماله.

ورغم إيماننا بأن سلياً لا يمثل الوزير ـ في الظروف العادية ـ فإننا قد نستلهم من المهمات التي قام بها أن الوزير كان مسـؤولاً عن السفارات في الخارج، وإجراء المفاوضات، وعقد الاتفاقات وما أشبه ذلك، ولكن جانباً من هذه المسـؤولية كان يقوم به الاثنارك(Ethnarch) وهو نائب عن الملك،

مهمته رعاية مصالح الأنباط في الخارج، وهذا الاسم وغيره من أسماء أصحاب المناصب في الدولة يدلّ على احتذاء الأنباط في بناء نظام الدولة للسلوقيين والبطلميين ثم للرومان، فقد كانت البلاد مقسمة إلى ولايات لكل ولاية «حاكم» يسمى أيضاً في النقوش (س ت ر ت ج = Strategus) وعمال أو وكلاء ممن كان الرومان يطلقون عليهم اسم (Procurator) ويسمى الواحد منهم لدى الأنباط «ا ب ر ك» (eparch) ويمكن أن يكون الأستاذ جونز على صواب حين استنتج ـ اعتماداً على قصة هرب بنت حارثة، وتأمين الحكام لانتقالها من ولاية إلى أخرى ـ أن الولايات النبطية كانت صغيرة، ولو عرفنا عدد الحكام في فترة من الفترات لكان من اليسير الحكم على ذلك الاستنتاج قطعاً بالخطأ أو بالإصابة، وتذكر النقوش مصطلحات أخرى لعلها كانت وظائف في الدولة، منها: مسعر (م س، ر) بمعنى مفتش، وقارىء (ق ر ء) ولعلها وظيفة دينية، وترد في النقوش النبطية من مصر لفظة «أفكل» وهي وظيفة دينية أيضاً بمعنى «الكاهن» أو سادن المعبد وقد ترددت هذه اللفظة في نقوش تدمر والحجر وسيناء والعربية الجنوبية، ولكنها لم تحتفظ في العربية الشمالية إلا بمعنى «الرعدة والارتجاف».

هذا ما تسمح به النقوش بالنسبة للوظائف المدنية، ولهذا كان لا بد لنا من تصور نظام متكامل للدولة اعتماداً على الاستنتاج، فحديث استرابو عن وجود المحاكم في بترا ـ وبخاصة للفصل في قضايا الغرباء ـ يجعلنا نستنتج وجود وظيفة للقاضي ولمن يستعين بهم في إجراء الأحكام، ووجود طبقة من المحامين للترافع في تلك المحاكم، ووجود كتاب عقود وموثقين، إلى سائر ما يتطلبه النظام القضائي. وفي نقوش القبور عبارات شرعية وأخرى تتصل بالعقود، وعبارات تنص على الغرامات، وأخرى تتعلق بالشهادة في مجلس القضاء، وهو ما لا بد من وجوده وتنظيمه لدى شعب، قد بلغ درجة عالية من الرقيّ في الشؤون التجارية والمالية، وفي أوراق

البردي التي اكتشفت عند البحر الميت عبارات تشريعية دقيقة تؤكد هذه النواحي.

وهنا لا بد من كلمة موجزة عن تلك البرديات، فقد عثر عليها في كهوف فوق عين جدي. وترجع إلى السنوات الأخيرة من عهد رب ايل الثاني. وصاحبة تلك النقود والوثائق امرأة تدعى باباتا بنت سمعون بن مناحيم، وقد كان والدها يملك أرضاً في منطقة زعر، وإلى جنوب تلك الأرض تقع حديقة «سيدنا رب ايل الملك ـ ملك الأنباط، واهب الحياة والخلاص لأمته»، وإلى شمالها يقع «المستنقع». وقد قيد سمعون شراءه للأرض في السجل النبطي والتزم إذا هو نكث العقد أن يكون دفع الغرامة للملك النبطي وللطرف المتأذي من ذلك النكث، وقد كفل للمشتري حق بيع العقار أو رهنه أو نقل ملكيته أو التصرف به حسبما يشاء، كما كفلت حقوق الري مع بيان دقيق بالساعات والأيام التي يمكن أن يتم فيها ري الأرض. وعقد البيع هذا يشير إلى نظام تشريعي دقيق عند الأنباط.

وذلك النظام التجاري هو الذي استدعى وجود موظفين ماليين مثل الجباة، وقد ذكر بليني وجود جباة عند الحوراء (ليوقه قومه) يأخذون ما يبلغ ٢٠٪ على السلع هنالك، ولا بد أن نمدّ مثل هذا التصور ليشمل جباة في مواقع أخرى من المملكة، هذا عدا الجباة الذين كانوا ولا بد، يجمعون الضرائب على الزراعة والصناعة، بالإضافة إلى مشرفين على الأسواق المحلية يقومون بالرقابة الضرورية للحدّ من التلاعب بالأسعار أو الغش في السلع وتطفيف الموازين.

واتساع الحياة التجارية قد أدى إلى نشوء وظائف ـ إن لم تكن جزءاً من الوظائف الحكومية ـ فهي بطبيعة تكوينها لا بد من أن تقوم بالتنسيق مع موظفي الدولة، من ذلك الأدلاء والدلالون في الأسواق، والتجار الوسطاء وعملاء التجارة، والوكالات التجارية والوكلاء في التجارة والأسفار. ومثل هذا الاستنتاج ينسحب ولو جزئياً على الحياة الزراعية والصناعية والتعدين.

وكلما ازدادت مرافق الحياة تعقيداً زادت الحاجة إلى التنظيم.

وأما الوظائف العسكرية فكانت أيضاً وليدة احتذاء النظام الهليني والروماني، وقد كانت لفظة استراتيج التي وضعنا مقابلها لفظة «حاكم» تعني في الأصل رتبة عسكرية أي صاحب المشاة، ولكن لما كان صاحب هذه الرتبة يجمع بين قيادة المشاة والاشراف على إحدى الولايات أصبحت دلالة لفظة «حاكم» هي الصالحة للربط بين الوظيفتين، وعندما كان الأنباط يطلقون على بعض شيوخ الحورانية لفظة «استراتيج» فإنهم كانوا يؤكدون المعنى الثاني، حتى أصبحت اللفظة مرادفة للفظة «شيخ» وإن كانت دلالتها في الأصل مختلفة. ويقابل صاحب المشاة موظف عسكري آخر هو قائد الفرسان ويسمى هبارخ (Hipparchus) والرتبتان متساويتان في الدلالة حين تستعملان بين مصطلحات الإدارة المدنية. وتحت هاتين الوظيفتين وظائف أخرى منها «ك ل ي ر ك» الكليارك أي قائد الألوف، و «ق ن ط ر ى ن» أي القنطوريون وهو قائد المائة، ومرة أخرى نقول إن ورود هذه المصطلحات في النقوش بلفظها اليوناني يدل على الاحتذاء. ولكن من حقنا أن نتساءل: كيف كانت هذه التنظيمات - إن وجدت - في فترة سابقة؟ إن مصطلحاً واحداً يشير إلى أنه صيغة نبطية أصيلة وأن الاحتذاء لم يغيره وذلك هو «رب مشريط» وهو يقابل رتبة «عريف» (Praefectus, Castrorum).

إن هذه الصورة التي نرسمها للتنظيم الحكومي في بنيته المدنية والعسكرية كثيرة الثغرات، إذ هناك مجال لأسئلة عديدة، ولكنا نحجم عن الابعاد في التصور مخافة الشطط في القياس على ما كان لدى الآخرين. وقد كان نظام الحكم في دولة بترا محط إعجاب أثنودورس، راوية استرابو إذ يقول هذا الجغرافي: «وهي تتمتع بحكم جيد، وفي أية حال كان أثنودورس وهو فيلسوف وصديق لي، وقد عاش في مدينة البترائيين يتحدث عن حكومتهم بإعجاب» ومبعث إعجاب أثنودورس هو أن الحكومة كفلت نوعاً

من العدالة بين الناس بحيث قلت حاجتهم للتقاضي ـ وذلك أمر سبقت الإشارة إليه. ولذلك يبدو أن ما كان للدولة كان معروف المعالم، وكان ما للناس محدداً، بحيث لا يفتئت الفريق الأقوى على الفريق الأضعف، فالضرائب كانت معتدلة ـ فيما يبدو ـ وميل الملك إلى عرض أعماله على الشعب، كانت تعني أيضاً رفع الشعب ظلاماته إليه ـ لا إلى المحاكم، وعلى هذا فإذا احتكرت الدولة مثلاً مزارع البلسم عند أريحا أو منتوجات القار من البحر الميت، لم يكن ذلك داخلاً في منظور استبدادي، لأن الأنباط قبل الاستقرار الحضاري كانوا يعرفون أن لشيخ القبيلة ما أسماه عرب الشمال من بعد «المرباع والنشيطة والفضول»، أو أشياء شبيهة بذلك وإن لم تكن تحمل تلك الأسماء نفسها.

ويصف الملك نفسه أحياناً ويصفه شعبه بأنه «راحم عمهو» (محب أمته) وأحياناً بأنه جالب الحياة والخلاص إليها، ويهمنا هنا أمران أولهما أن الملك يتحدث عن شعبه مضافاً إليه، والثاني أن ذلك الشعب كان «أمة»، وهذان الأمران يقرران ـ على الوجه الظاهر ودون تأويل ـ قوة الرابطة بين الملك ورعاياه، ورؤية الشعب من خلال وحدة جامعة هي وحدة الأمة، فأما الحديث عن هبة الحياة للأمة فأمر يوحي بالتأليه، ولكن إذا قرنّا هذه العبارة بتخليص الأمة من كارثة حلّت بها، فإن هبة الحياة تصبح تعبيراً مجازياً. ومع ذلك فيجب ألا نغالي في تفسير عبارات التحبب، فربما لم تحمل أي معنى على المستوى العملي، وهبنا وجدنا في مثل تلك العبارات تطابقاً بينها وبين الواقع فإنها لا تستطيع أن تكفل عدم التمايز الطبقي في فئات المجتمع النبطي ولا اتساع الشقة فيه بين الأغنياء والفقراء، ولكنه كان قد أصبح مجتمعاً متحضراً قد ابتعد كثيراً عن الشعور البدوي بمهانة المهن، ولهذا كأنما كان ذكر المحترف اسمه واسم حرفته ينم ضمناً عن اعتزازه بتلك المهنة، ومن ثم نجد بين فئات ذلك المجتمع النحاسين والحدادين والنجارين والمساحين والبنائين، كما نجد الصيادين والعمال والمحاربين،

هذا عدا عن الفئات ذات التوجه الفني مثل النحاتين والرسامين، وكثيراً ما يسجلون انتماءاتهم في النقوش التي خلفوها، مثال ذلك: هذا الصنم عمله ماسك بن عويذا لذي الشرى (ليتمان: ٣٨) ومن ذلك (جرمو بن هناءة بن كهلان الطيّان) (ليتمان/ مصر: ٧٥) ومنه «أنعم بن عصب هو النحات» (ليتمان: ١٠١).

ويذكر استرابو من خلال راويته أن الرقيق كان قليلاً في المجتمع النبطي: «ولما كان العبيد لديهم قليلين، فإن من يقوم بالخدمة فيما بينهم هم ناس منهم في معظم الأحوال، أو يخدم أحدهم الآخر، أو يقوم الفرد منهم بشؤون نفسه، وهذه العادة تشمل الملوك أنفسهم»، وعلى الرغم مما توحي به هذه العبارة من تواضع واعتماد على الذات فإنها تحمل في جانب منها حقيقة التمايز بين خادم ومخدوم، على نحو يومىء إلى وجود طبقة فقيرة في ذلك المجتمع المنعوت بالثراء، وإذا استطاع الأنباط أن يقيموا مبدأ «التملك» عنواناً على القدرة والرجولة، ويعيّروا من عجز عن ذلك في مقابل التكريم لمن نجح في الجمع والاكتناز، فإن ذلك لا ينفي أن هناك فئة كانت حقاً عاجزة عن ذلك، وأنها كانت جديرة بالتغريم (يغرمون من لا يستطيع أن يدفع الغرامة).

غير أن الثراء كان يمدّ عنقه متحدثاً عن نفسه في تلك المآدب والحفلات التي كانوا يقيمونها وفي المباني التي كانوا يشيدونها، فقد كانوا كما يقول راوية استرابو «يُعِدّون مآدب عامة (أي يدعون الجَفَلى) في فئات تضمُّ كل فئة منها ثلاثة عشر شخصاً، ولديهم قينتان تغنيان في كل مأدبة (وهكذا يتكرر مجلس الجرادتين، كما درجت على ذلك عاد ثم عرب الشمال من بعد وغيرهم) ويقيم الملوك حفلات شرب على نسق رفيع، ولكن لا يتجاوز أحد في شربه احدى عشرة كأساً، مستعملاً في كل مرة كأساً ذهبية جديدة، وبما أنهم يستعملون الحجر في بناء بيوتهم فإن بيوتهم عالية التكاليف، ولكن لشيوع السلم والأمن فيهم فإن مدنهم غير مسورة» (١٦/ ٤ : ٢٦)، فهذا

الحديث عن الغناء وشرب الخمر وكؤوس الذهب والمآدب الحافلة يصور مجتمعاً أقرب إلى الترف، كما يصور رسوم آيين بالغ الامعان في التحضر، ولعل ذلك الاقبال الشديد على الخمر إنما كان مقترناً بتحول ذي الشرى إلى ديونيسيوس (رب الخمر) وانتحاله دوره وصفاته، فنحن إزاء مجتمع ذي حياة لا يمكن أن توصف بالبساطة.

ويضيف استرابو إلى ما تقدم ذكره الحديث عن بعض عوائدهم في اللبس والانتعال فيقول:

«وهم يمشون دون أن يلبسوا السترات الرومانية الطويلة (Tunics) وقد تمنطقوا بالمناطق حول الاحشاء، وانتعلوا الأخفاف في أرجلهم، وذلك يصدق حتى في حال الملوك، إلا أن اللون الذي يؤثره هؤلاء هو الأرجوان».

وكانت العائلة هي الوحدة المهمة في ذلك المجتمع، ويبدو أنها كانت أيضاً شديدة التماسك وتقوم على روابط قوية بين أفرادها، وفيها حرص على الاستمرار في الحفدة، واحتفال بالنسب ورفع له، والتزاوج بينهم في الأكثر بين الأنباط أنفسهم من كلا الجنسين، ولكننا إذا نظرنا إلى رغبة سلي في الزواج من سالومه، ثم زواج أنتباتر الايدومي من امرأة نبطية وزواج أنتباس من ابنة حارثة الرابع حكمنا بجواز زواج النبطي من امرأة غريبة وزواج الغريب من امرأة نبطية، ويمثل هذا التسامح أمراً مفارقاً إزاء صيحة نحميا منادياً بتحريم التزاوج بين اليهود والغرباء عنهم. ولكن هذه الأمثلة المنتزعة من الطبقة العليا لا تعرّفنا إن كانت تمثل قاعدة عامة أو استثناء ليس من حق الطبقات الدنيا، كما لا نستطيع أن نكشف عن مدى شيوعها بين سائر أبناء المجتمع النبطي.

ويتواتر الدارسون على القول إن المرأة النبطية كانت تتمتع بمنزلة مرموقة في المجتمع، وأنها كانت تعامل باحترام، وأنها كانت مصونة

الحقوق، ويستدلون على ذلك بما كان لربة الخصب «أترعتا» من مكانة سامية بين الأرباب، وأنها كانت تتفوق على قرينها زيوس ـ هدد في القوة والسيطرة، وبوجود صورة الملكة إلى جانب صورة الملك على العملة النبطية ومعها لقبها، وبإشارات في النقوش والبرديّ إلى حق المرأة في الوراثة والتملك والتصرف بأملاكها. ويتكئون على نقوش بأعيانها تخبرنا عن نساء بنين أضرحة عالية التكاليف، دون اذن من أزواجهن، لتكون مدافن لأفراد العائلة بما في ذلك الحفدة أبناء البنت. ومن هذه النقوش عدد كبير يتحدث عن إنشاء المرأة أضرحة لها ولأبنائها دون ذكر لأبيهم وتنتقل وراثة تلك القبور من الأم إلى بناتها دون ذكر للأبناء. ولست أستبعد وجود تلك المنزلة للمرأة، ولكن الدلائل المتوفرة إنما تحمل قيمة المؤشرات لتلك المنزلة، دون أن تحدد وجودها على التحقيق، وهي أيضاً منتزعة من علاقات الأرباب فيما بينهم أو من وضع خاص لعله لم يكن من الشيوع بحيث يتناول الطبقة الوسطى وما دونها.

إن دراستنا لجوانب الحياة الاجتماعية لدى الأنباط تعتمد في معظم أمورها على تصيد المؤشرات، لقلة الأخبار والمعلومات التي تمدنا بها المصادر التاريخية والنقوش. وربما مال بنا التصور ـ لأول وهلة ـ إلى رؤية مجتمع نشيط تجارياً وزراعياً وصناعياً، قد ألهاه التكاثر عن كل ما عدا ذلك. ولكن ها هو استرابو يصوّر جانباً من وضع حضاري فني حين يذكر الغناء والموسيقى، إذن كان لدى الأنباط مغنون ومغنيات وموسيقيون، وتستطيع النقوش والتماثيل والمعابد الكبيرة أن تحدثنا عن وجود نحاتين ورسامين ومهندسين معماريين بارعين وبنائين قادرين، وبعض هؤلاء يترك توقيعه على ما ينحته أو يرسمه أو يشيده، وهذا المستوى الفني كان في النهاية مؤثراً في المجتمعات التي اتصل بها الأنباط ومتأثراً بما لديها من ضروب الفنون والصنائع، وعن طريق هذا التبادل في التأثر دخلت اللغة الآرامية ألفاظ عبرية وفارسية ولاتينية ويونانية وأصبحت لغتهم عن طريق التوسع

التجاري لغة شائعة معروفة في منطقة واسعة من العالم القديم.

ويستفاد مما ذكره استرابو عن الأنباط أنهم كانوا لا يحفلون شيئاً بأمر الموتى، إذ يقول في هذا الصدد «ونظرتهم إلى الموتى كنظرتهم إلى الروث، أو كما يقول هرقليطس: جثث الموتى حرية بالطرح أكثر من الروث، ولهذا فإنهم يدفنون الموتى - حتى الملوك منهم - إلى جانب أكوام القمامة» وهذا الخبر يبعث على الاستغراب حقاً، فهو يبدو مناقضاً للواقع تمام المناقضة، وذلك أن أبرز ما تبقى من آثار الأنباط إنما هي الآثار الدفنية القبورية، وتلك الأضرحة المنصوبة في أماكن متعددة من مواقعهم تدلّ على تقدير خاص للموتى، ووعي خاص بمعنى الموت، على خلاف تام مع ما يذكره استرابو. وقد حاول بعض الدارسين أن يعلل غرابة النص بخطأ وقع فيه استرابو، ولكن محاولته متكلفة كثيراً[1]. وذهب دارس آخر إلى التذكير بما كان لدى الايرانيين من عادة «الكشف الشعائري» لجثث الموتى، وهي عادة لم تكن قاصرة على الايرانيين، بل وجدت لدى أقوام أخرى مثل البقطريين والصغديين، ومن ثمّ فقد تكون مما مارسه الأنباط. ويرى ذلك الدارس أنها لم تكن عادة عامة، وإنما وجدت لدى فئة أو طبقة من الناس في بترا حين كان أثنودورس نازلاً هنالك، وأن ذكرها مقترناً بالملوك ربما رجّح أنها كانت تمارس في الطبقة الأرستقراطية. ويرجع توقف أثنودورس عندها إلى كونها مفقودة لدى اليونان. ومما يقرب هذا إلى القبول أن الأنباط نقلوا كثيراً من المؤثرات البارثية (الفارسية)، وأن زمن أثنودورس مقارب في الزمن لعهد مالك الأول الذي كان ميالاً إلى البارثيين. وفي بترا مواضع كثيرة قد يستنتج أنها لم تكن سوى «مصاطب» لكشف جثث الموتى على نحو شعائري. ومثل هذا الفهم لنص استرابو يبدو مخرجاً من المأزق ولكن ربط هذه الشعيرة بما كان لدى الايرانيين استبعاد لما هو مألوف لدى الساميين من ميلٍ

---

(١) اعتماداً على أن لفظة Kaphor بالآرامية ومعناها «القبر» قد ظنها استرابو Kopron وتعني كومة القمامة.

إلى ستر جثث الموتى، وهو ميل عبَّر عنه الشعر العربي الجاهلي ـ من بعد ـ بقوة، وعلى ضوء ذلك الشعر يصبح عدم ستر الميت أمراً منكراً[1]. ثم إن نصّاً استرابو لا لبس فيه، فهو يستعمل في ما يقابل في اليونانية لفظة «طرح» الموتى ولفظة «دفن» الموتى، ولا يستعمل ما يومىء من قريب أو بعيد إلى معنى الكشف، وبذلك يظل نص استرابو خبراً محيّراً حقاً.

---

(١) انظر مرثية متمم بن نويرة لأخيه مالك، وفيها يقول:

ألم تأت أخبار المحلّ سراتكم ... فيغضب منكم كل من كان موجعا

قال الشارح: المحلّ رجل مرّ بمالك فلم يواره.



- ٨ -
الدين لدى الأنباط

كان انتقال الأنباط من حياة بدوية أو شبه بدوية إلى حياة مستقرة العامل الأول في تطوير الدين على مستوى المعبود والشعائر والمعتقدات والمؤسسات الدينية ، فقد كان الاستقرار يعني خلق أوضاع جديدة لا بد من أن تؤثر في كثير من المفهومات الدينية التي صاحبت حياة الترحال من قبل ، إذ كان أول ما يعنيه الاستقرار بروز الحاجة إلى معبد ، والمعبد يتطلب فناً معمارياً قابلاً للتطور ، وفي داخل المعبد لا بدّ من تمييز أمكنة بأعيانها لشعائر معينة ، ولا بدّ من ترسيخ رموز دينية متصلة بالأرباب في ذلك المعبد نفسه ، وكل ذلك لم يكن داخلاً في حيّز التصوّر في فترة الترحال والتنقل ، وإذا اتصل الاستقرار بالنشاط الزراعي فذلك يعني قبل كل شيء تغيراً في طبيعة الأرباب ، إذ الأرباب الذين كانوا يهيمنون على القطعان والكلأ وتعاقب الليل والنهار لا يعودون صالحين بطبيعتهم للسيطرة على الزراعة وعلى الخصب - بمعناه الواسع - فإما أن تضاف إلى طبيعتهم السابقة خصائص جديدة ، وإما أن تخفت سيطرتهم أمام سيطرة أرباب جدد .

وكان العامل الثاني في تطور الدين لدى الأنباط هو اتصالهم بحضارات أخرى غربية وشرقية ، منها الحضارة البارثية واليونانية والرومانية والمصرية والآرامية وغيرها ، ولم يكن لهذه الحضارات أثرها وحسب في عبادة آلهة جديدة (على نحو توفيقي بين إله قديم وإله جديد)

وفي اقتباس شعائر ورموز ورسوم لم تكن لدى الأنباط من قبل ، بل كان أثرها ظاهراً في الفن النبطي أيضاً سواء في مجال المعمار أو الرسم أو النحت .

والأرجح أن الأنباط حملوا معهم من مواطنهم الأولى أرباباً معينة هي اللات والعزى ومناة وذو الشرى وشيع القوم ، وكل هذه الأرباب كانت تناسب عيشة البداوة، وخاصة شيع القوم فإنه كان رباً يكره شرب الخمر ، وذلك هو حال الأنباط قبل أن يصبحوا من أكبر زراع العنب ومنتجي الخمور . فلما بقي شيع القوم على حاله لا يتغير بتغير المؤثرات الزراعية لحق التغير رباً آخر وهو ذو الشرى ، كما سأوضح من بعد . وكانت اللات (هي الالهة) تمثل في الأرجح الشمس ، وهذا يتفق وقول استرابو إن الأنباط يعبدون الشمس ، وهي في معتقداتهم أم للأرباب ، كما كان حالها لدى عرب الطائف وتيم اللات في المدينة ، حيث كانت لفظة «الربة» تكفي للدلالة عليها. وحين يتحدث أبيفانيوس[1] عن عيد سنوي يقيمه الأنباط في بترا لأم الربّ النبطي الأكبر ذي الشرى فالأرجح أن كلامه ينصرف إلى اللات ، وإن كان يسميها « كعبو » وهو شكل الصنم الذي كان يرمز إليها، كما يرمز إلى ذي الشرى في الطور الأول من حياة الأنباط ، ونحن نعرف أن اللات في الطائف كانت صخرة بيضاء مربعة، كما أن دي فوغيه (De Vogue) اكتشف في صلخد (وهي منطقة نبطية) صخرة مربعة باسم اللات ومثلها أخرى لذي الشرى . وسنرى ازدواج العبادة (لمعبودين أحدهما ذكر ابن أوزوج والآخر أنثى) ظاهرة تتكرر في الحياة الدينية لدى الأنباط ، كما هي لدى غيرهم من سائر العرب . وقد أقيمت للات معابد كثيرة في المواقع النبطية قبل أن تتحول إلى أترعتا وبعد تحولها ، ولكن اسمها قليل الورود في نقوش بترا فهي ربة بصرى وصلخد

---

(١) ربما لا يصلح ما يقوله أبيفانيوس للتعبير عن بواكير الدين لدى الأنباط لأنه يتحدث عن القرن الرابع ب.م.

حيث كان عبادَها المخلصين بنو روحو .

ولا تحتل العزى (التي تماثل بفينوس) ومناة دوراً بارزاً بين الأرباب النبطية ، وخاصة بالنسبة لذي الشرى الرب الأكبر الذي حمل طبيعة بعض الآلهة السامية في دور مبكر ، فأصبح يناظر كلاً من بعل ، وهدد ، وبعل شمين (رب السموات) كما حمل طبيعة ديونيسيوس في دور لاحق ، ثم أصبح صنواً لزيوس ، ثم أصبح مماثلاً للازدواج بين زيوس وباخوس (ديونيسيوس) معاً . وكان في البدء يعبد على شكل حجر مربع ، أو مستطيل ، وإلى هذا تشير كثير من تلك الكتل الصخرية المستطيلة المنحوتة في بترا وضواحيها ، وحيثما توجه المرء في بترا وجد رموز ذي الشرى منصوبة أو منحوتة مما يدل على مدى مكانته في بترا نفسها . وقد كان ذو الشرى إلهاً شمسياً ولهذا تجد أنصابه ورموزه مُحَرَّفَةً أو موجهة نحو المشرق. أما القول بأن ذا الشرى لم يكن إلهاً عربياً لأن العرب في الشمال الغربي من الجزيرة كانت تسيطر عليهم العبادة القمرية بينما ذو الشرى إله شمسي، فهو قول يثير الاستغراب حقاً. وحين وقعت المضاهاة بين ذي الشرى والأرباب الأخرى أصبح ذا شكل إنساني، واقترن برموز مناسبة لأوضاعه الجديدة، ومن تلك الرموز الثور والصقر والأسد والأفعى. ففي استخدام الثور مصاحباً له تعبير عن رمز الخصب الذي يصله بزيوس ـ هدد وكذلك هو رمز الصقر، ورمز الأسد، ولكن حين يضاهي ديونيسيوس (أو باخوس) فإن تمثاله يقترن بأوراق الكرمة وعناقيدها، وما أشبه من رموز يتميز بها ذلك الإله. وتدل النقوش أن ذا الشرى حين عبد في منطقة حوران لم يكن ديونيسيوس وحسب، حيث سميت باسمه السويداء (ديونيسياس) وإنما عبد تحت اسم آخر وهو ذو الشرى ـ أعرى.

وحين أصبح ذو الشرى يضاهي زيوس ـ هدد لم تعد قرينته هي اللات القديمة بل أصبحت هي أترعتا (أتر ـ أتا) ربة الخصب السورية أو ربة منبج (هيرابولس)، وإذا كان زوجها هدد ذا عرش مجنح بالثيران فإن



الشكل (١٧) : ذو الشرى - باخوس (البترا) .

عرشها هي مجنح بالأسود، وفي عسقلان كانت تبدو نصف امرأة ونصف سمكة، وبما أنها ربة خصب فقد وجد فيها اليونان نظيراً لافروديت، وعلى العموم كانت تعرف بالربة السورية، وكما أن ذا الشرى أصبح يناظر زيوس ـ هدد، فكذلك اللات أصبحت تناظر أترعتا، لدى الأنباط أنفسهم. وقد كان اكتشاف معبد خربة التنور على يد غلوك يمثل الحصول على التفصيلات الدقيقة لكل من ذي الشرى واللات في صورتيهما المتطورتين أعني زيوس ـ هدد، وأترعتا.

أما زيوس ـ هدد في معبد التنور فإنه محفور في كتلة من الصخر الرملي وهو جالس على عرش يحف به ثوران، وجسمه صغير (٣٥ سم طولاً) بينما رأسه غير متناسب مع جسمه إذ يبلغ ٢٩ سم، ويبدو في موضعه جميلاً قوياً رزيناً وقد يوحي لأول وهله بأنه زيوس اليوناني، ولكنك إثر تأمل ترى فيه المؤثرات والملامح الشرقية، فالشعر متموج مجعد، واللحية مضفورة في ثلاث خصائل، ونهايتا الشاربين معقوفتان على شكل حلزوني، وله جبهة منخفضة وحاجبان كثّان، ومحاجيء فارغة يلوح فيها أثر دهان أحمر، وأنف منبسط، فهو إله شرقي قد صبغ بصبغة هلينية، وخاصة نموذج الشعر فإنه نموذج يوناني. وهذا يكاد يكون عاماً في تماثيل الآلهة التي وجدت في التنور، فالشعر أحياناً مسترسل على الأكتاف في خصل متداخلة مجعدة، أو ملقى على الأكتاف في أشكال ملتوية معقوصة أو معقربة، واللحى والشوارب لدى الآلهة الذكور مرتبة مهندمة على نمط يقربها من الاله الرئيسي زيوس ـ هدد. أما تكبير رأس هذا الإله بالنسبة لسائر جسمه فربما كان تأكيداً على الطابع الشرقي فيه فهو فوق النوع الإنساني لأنه مختلف عنه، ومن الصعب أن نصدق أن الأنباط الذين كانوا يحسنون النحت والرسم إنما وقعوا في عدم التناسب في تصوير إلاههم بسبب عجز فني. وأما الثوران اللذان يحفان بعرشه فإنهما يعبران عن الفحولة والقوة الحيوانية الواقعة تحت إمرة الإله. وكثيراً ما يظهر هذا الإله

لابساً أطواقاً، ولعل ذلك مأخوذ عن البارثيين، وفي نهايتي الطوق رأسا أسدين يرمزان إلى اكتمال القوة في زيوس ـ هدد، وعلى الكتف اليسرى شملة ملقاة تخفي جزءاً من الطوق في ذلك الجانب.

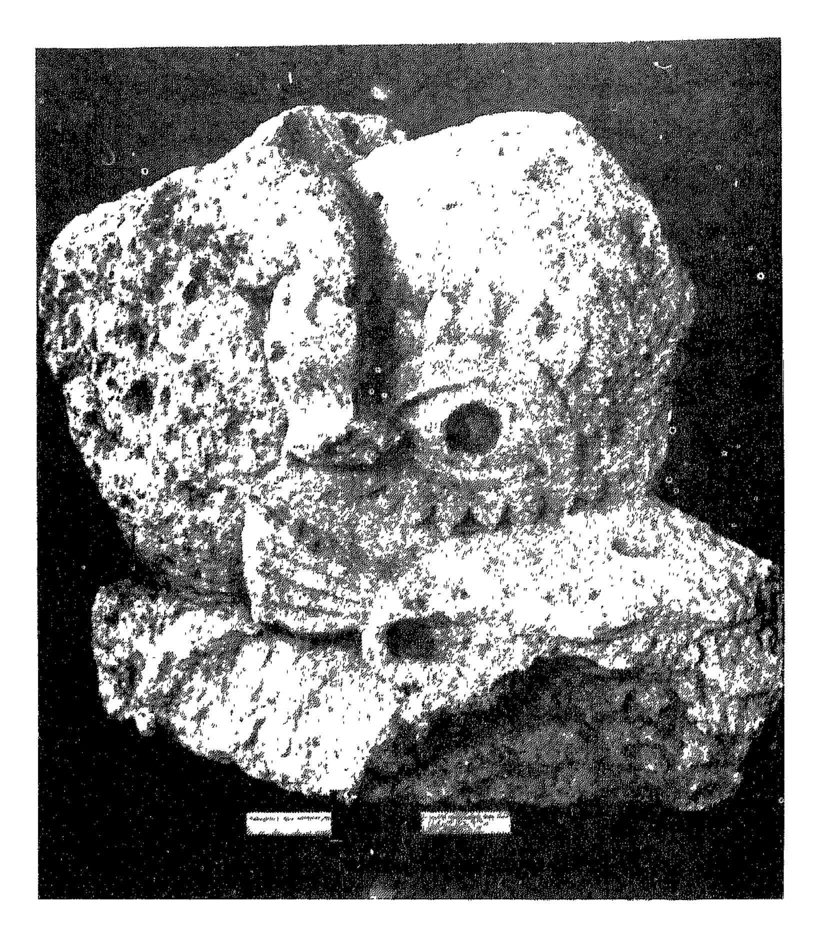
وليست أترعتا (أترغات) الجالسة بين أسدين يحفان بعرشها في معبد التنور بأقل قوة وتأثيراً من قرينها، بل لعلها أقوى منه، وهي تلبس «شيتون» عالي البنيقة، مجعداً تجعيداً خفيفاً حول جيدها، وفي أعلى الثوب طوق ينتهي برأسي أسدين كالذي لزوجها، وبين النهايتين «بروش» وردي أو حلية نافرة، وقسمات هذه الربة نضرة قوية جذابة، وشعرها مفروق في الوسط ومسرح في تموجات رشيقة تنتهي بخصل متفرقة على جانبي رأسها الذي يعلوه تاج مزهّر أو كرات، والعينان بشكل لوزتين على جانبي أنف مسنون قصير فيه بعض انبساط إغريقي. وهما تمنحان وجهها مسحة من تأمل، وقد ميز حاجباها المقوسان بخطوط محددة، مع انحدار السطح الواقع بينهما إلى أسفل، وفي المحجرين بقية دهان أحمر، والعينان شديدتا الغؤور ، والأجفان موضحة حفراً بتحزيز، والحدقتان ممثلتان بدوائر مرفوعة ذات مركز واحد، وانسانا العينين موضحان بانخفاضات دائرية داخلهما، أما الشفتان فهما ممتلئتان مع تقويس واضح وانفراج قليل، والخدان مستديران فوق ذقن حسنة التكوين، والعنق طويل يكمّل منظر الرأس، وعلى الجملة يطالعك فيها ربة ذات جمال هادىء وقوة واثقة، تمثل المعرفة مشوبة بنكهة النشوة ومتعة الخصب وهدأة الرضى.

وليس هذا إلا وجهاً واحداً من وجوه أترعتا، ذلك لأنها في معبد التنور تظهر في تسعة أدوار، فهي ربة الحياة النباتية، وربة القمح، وربة الدلفين، وربة الحظ(تايكه) وربةالبروج وغير ذلك. وفي تجلياتها المختلفة تعكس معاني ومفهومات دينية مختلفة أيضاً، ففي بعض تماثيلها تبدو والأوراق تغطي كثيراً من أجزاء جسمها: وجهها وعنقها وصدرها، وأحياناً يظهر التين والرمان مقترنين بها، ويلفت النظر في أحد تماثيلها الأوراق

الشكل (١٨): أحد تماثيل الربّة أترعتا.

الكبيرة التي تغطي الوجه والعنق والجسم ما عدا النهدين ، وإحدى الأوراق مستعرضة تتدلى كأنها جوهرة كبيرة عند مقدم جبهتها ، وتمتد من تحت جوانب شعرها المفروق منبسطة على سنة أنفها، وتكوّنُ جوانب الورقة وقاعدتها ستة مثلثات منفصلة تذكر المرء بأشعة الشمس التي يصنع منها تاج هيليوس، وورقتان إضافيتان ذات أربعة أطراف مثلثة في القاعدة، تغطي الخدين، وورقتان كبيرتان تحيطان بكل جيدها الأتلع ، ما عدا الوسط منه . وتتزيا أترعتا بأزياء كثيرة أخرى منها تاج محاط بعلامات دائرة البروج ، وقرن خصب، وأحيانا تبدو في زي ربة قمح، وأحياناً في زي ربة دلفين ، ولكن تصفيف الشعر في كل هذه الأزياء واحدٌ مهما يكن دور الربة، أما الملابس فتختلف إذ تلبس ربة القمح ثوباً عالي البنيقة مغلقاً من الوسط الأعلى، وخطوطه تنسجم ومستوى النهدين، بينما تلبس ربة الدلافين ثوباً ذا ربطة بسيطة في أعلاه وسائره كأنه قطاعات مثلثة الشكل وضع بعضها فوق بعض في تدرج سلمي ، والربتان في الحالين تشتركان في وجود أوراق الأقنثا التي ترمز إلى فكرة الخصب ، ولكن ربة الدلافين تتميز بوجود دلفينين يقفان متواجهين على قمة النصيف (أو الشال) الذي يغطي رأس ربة الدلافين، كما تتميز ربة القمح بسويقات قمح على قمة الرأس وعلى الجانب الأيسر منه ، وتعلو سويقة قمح على الكتف اليسرى والجانب الأيسر من النصيف، وتنبثق أربع سنابل على الجوانب العليا من الرأس .

ويبدو أن رمز الدلفين كان شائعاً إذ وجدت نماذجه في خربة براك وفي بترا وفي عبدة وفي وادي رم، وهو موجود في آثار مدينة الحَضْرِ أيضاً . والسؤال الذي يعترض في هذا الموقف هو كيف اهتدى الأنباط إلى هذا الرمز البحري ، وهم أعلق أسباباً بالبرّ؟ والجواب على هذا السؤال أن الأنباط لم يكونوا يجهلون البحر، بل إن وجود جاليات لهم في إيطاليا تشير إلى صلات بحرية أيضاً ، وهم قد عرفوا عن كثب البحر الأحمر والبحر المتوسط. وأترعتا واهبة خصب وحياة، وهذان لا يتمان دون ماء، وبالماء يرتبط



الشكل (١٩): الدلفين (من خربة تنور).

الدلفين؛ ولعلهم في تجوالهم رأوا تمثال ربة ومعها هذا الرمز فاستحسنوا ذلك ونقلوه إلى بلادهم، كذلك فإن الدلفين حيوان مائي مهم للسفر في البحر، مثلما هو مهم في السفرة النهائية للانسان. ذلك أن الاهتمام بالحياة الأخرى لدى الأنباط أدى بهم إلى إضافة الخيل والجمال أيضاً لتكون وسائل نقل تسهل الرحلة على من يقومون بها، ووضع رمز الدلفين في المعابد والمزارات مرتبط بحبهم لضمان السلامة على الطريق التي يقطعونها بعد أن يغادروا دار الفناء، وكل هذا يومىء إلى أن الموتى أحياء وأن الحياة والموت متوحدان. فهذا الربط بين أترعتا والدلفين يوسّع من دورها توسيعاً واضحاً كما يقوي الترابط بين الدين النبطي والعالم الإغريقي ـ الروماني ـ السامي، وحين تبدو وفوق رأسها أحد الأبراج، فهذا يومىء إلى أنها ربة «كونية» من حيث صلتها بالأوقات والفصول والأجرام، ولهذا ليس غريباً أن يقال إنها كانت أقوى من قرينها.

وفي كوكبة الأرباب لدى الأنباط آلهة أخرى أقل شأناً مثل أشر، وقوس، والكُتْبَى (مؤنث أكتب) وبعضهم يرى هذه الأخيرة صنواً لذي الشرى؛ إلى غير ذلك من آلهة صغيرة تذكر في النقوش والمجسمات المنحوتة، وخاصة في التنور.

وإذ قد وضح لدينا مدى التطور الذي خضع له أهم الأرباب النبطية فمن السهل أن نتصور ـ أو أن نفترض ـ تطوراً لحق الشعائر الدينية نفسها، وخاصة حين يقترن ذو الشرى بديونيسيوس إله الخمر، ويحسن هنا أن نتذكر أن ذا الشرى ـ حتى في مرحلته البدوية ـ كان إله قبيلة دوس، وأن ذكره اقترن بحديث موضوع هو: «لا تقوم الساعة حتى تصطك أليات عذارى دوس على ذي الشرى»، فإذا تذكرنا ذلك لم نستبعد أن تكون الشعائر المتصلة به حين أصبح رباً للخمر غير خالية من العربدة، وأن سَوْرَةَ الاحتفالات كانت تؤدي بالرجال والنساء إلى الاتحاد لتحقيق شعائر الخصب.

وكان تقريب القرابين من أهم الشعائر لدى الأنباط وغيرهم من الشعوب السامية، وذلك يكون بالضحايا الحيوانية التي يسفح دمها على مذبح أو على رأس النصب. وليس لدى الأنباط ما يشير إلى ضحايا بشرية، وإن قرن بعضهم بين العزى وبين التضحية لها بفتاة أو فتى عند غيرهم، وإذا كان الدم أهم قربان، فلعل ذا الشرى حين أصبح ديونيسيوس نفسه غدا يتقبل بدلاً عنه « دم العنقود ». وكانت الضحية الحيوانية تحرق أحياناً كما كان حرق البخور يقوم مقام تقديم الضحايا وحرقها، ومن القرابين أيضاً الثمار والحبوب ولحوم الطيور.

وهذه القرابين لم تكن تحرق كلها لدى المذابح في المعابد، بل كان معظمها يأكله موظفو المعبد والعباد في غرف خاصة بالولائم المقدسة، حيث يجتمع الكهان والحجاج إلى المعبد في مواسم وأعياد دينية، وفي كل غرفة بالمعبد مصطبة تحاذي جوانب ثلاثة من جوانب الغرفة (نسميها المصطبة الثلاثية) يجلس عليها الآكلون حين يقومون بالوجبة التعبدية، وهذه الوجبة كانت ذات أهمية محورية في العبادات لدى الأنباط، وإن كنا لا نعرف إلا القليل عن طابعها الحقيقي، لأنها تعني المشاركة بين الإله وعابديه بالمؤاكلة، وكانت الوجبة التعبدية تمارس أيضاً في القبور ذات النطاق الافريزي الذي يشبه المصطبة وإن كانت ممارستها أقل مما هي في المعابد.

وأكثر المذابح النبطية التي كانت تقرب عندها القرابين هي من النوع الأقرن، وهي كثيرة العدد لتكاثر المعابد في المواقع النبطية المختلفة. ويقول استرابو إن للأنباط مذابح في بيوتهم يسكبون عليها القرابين كل يوم ويستعملون البخور، ولكن لم يكتشف حتى اليوم شيء من هذه المذابح البيتية، والأقرب إلى التصوّر أنها كانت مجامر للبخور في الأغلب. وتتصل المذابح بالمعابد المبنية وبالمعلّيات المخصصة للعبادة كما أن منها ما هو منحوت منفرداً في صفحات المنحدرات الجرفية. وعندما قطعت العبادة

شوطاً في التطور دخل التفنن إلى شكل المذبح أيضاً، فابتعـد عن النـوع الأقرن وكثرت الزخارف على جوانبه.

وقد تم الكشف عن معابد نبطية أهمها معبد خربة التنور والمعبد في وادي رم، وخُطِّطَ معبد ذيبان. ويتميز معبد وادي رم بالبساطة، بينما بولغ في تعقيد الزخرفة في كل من التنور ومعبد سيعا بحوران. ولكن جميع المعابد تشترك في عناصر أساسية هي القلاية (Cella) المحجوبـة والمذبـح وبعض تماثيل الأرباب أو صورهم، كما أنها في تصميمها محرّفة نحو الشرق لتقابل شروق الشمس. ويعدّ معبد التنور من أهم المعالم التي خلفها الأنباط ولهذا أبيح لنفسي بشيء من الإسهاب في الحديث عنه تمييزاً له: تقع خربة تنور على بعد حوالى ميل إلى الغرب من الطريق السلطاني الذاهب من دمشق إلى ايلة، ويبدو معبد تنور كأنه برج قائم فوق انشعاب واديين ضيقين هما وادي حسا ووادي لعبان، ولا يمكن أن يكون موقعه وحده هو الذي أغرى الأنباط بتشييده، إذ لا نبع عنده ولا حقول للفلاحة ولا مدينة ولا سوق، وهو لا يصلح محطـة للمسافـرين، إذ ليس فيه نزل يأوون إليه، وهنـاك مزاران نبطيان قريبان منه واحد في خربة الذريح والآخر في أم راس فما الداعي إلى إنشائه؟ أكبر الظن أن المكان كان ذا قداسة خاصـة لسموقـه وصلاحيتـه الدقيقة لبعل شمين ـ هدد، رب الصواعـق والرعـود، وقـد دلّ الفحص الأثري للمعبد على أنه مرّ في ثلاثة أدوار من حيث البناء وربما كانت بدايته مذبحاً فوق مكان مرتفع ثم تحوّل إلى مبنى في القرن الأول قبل الميلاد.

وفي هذا المعبد وجدت تماثيل أرباب كثيرة، مما تقدّمت الإشارة إليه، ووجدت المصاطب الثلاثية، التي كانت تتخذ للولائـم التعبـدية، وهـي مصاطب تشبه تلك التي وجدت في بترا. وبذلك يثبت توحيد الصلات بين الشعائر في الموقعين، والفرق الوحيد بين مصاطب تنور ومصاطب بترا أن الثانية كانت تقطـع من حجـر رملي أملس، وفي الأولى كانـت تبنـى من وحدات حجرية جيرية حسنة «الدق».

ولا ريب في أن بين معبد التنور وبين المعليات في بترا صلة قوية من حيث أنهما موضعان للعبادة، وتعدّ المعلاة العظمى (معلاة روبنسون) نموذجاً لعدد منها، (وهي منشأة من صخرة مجوبة يوصل إليها بواسطة درج، وتتألف من باحة خفيضة وصهاريج مجاورة ومذبحين وإفريز يشبه المصطبة، وفيها مذبح مركزي يصل إليه الصاعد على درج) ولكن لا ريب في أن الفن المعماري في معبد التنور يتفوق بكثير على المعلاة لأنه أكثر تعقيداً وتطوراً، ولكن رغم ذلك كله يظل معبد التنور ـ على كلّ ما اقتبسه من مؤثرات خارجية ـ ممثلاً لجانب من البساطة والروح النبطيين.

إن نظاماً دينياً كالذي مرّ وصفه يستدعي حتماً وجود مؤسسة تشرف على ذلك النظام وتوجهه، وهنا لا بد من وجود الكاهن، وهو مذكور في النقوش، والأفكل وهو السادن الحكيم، ومنظمو الأعياد المرتبطة بالفصول، والقيمون على شؤون النذور، وإعداد الجنائز، وطقوس الدفن. وبهذه المناسبة نرى أن كل تصرفات الأنباط تخالف ما ذكره استرابو عن احتقارهم لجثث الموتى، إذ كانوا مهتمين برفاهية الميت، من اعداد للقبور إلى إقامة نصب تذكارية إلى تحريم تدنيس القبور بلعن كل من يفعل ذلك. كذلك عنوا بتغطية قبور العامة وصيانتها بالألواح وحفرها في صفحات المنحدرات الجرفية لئلا يصل إليها من يدنسها، وقد زوّدوا تلك القبور بكؤوس وجداول مما قد يشير إلى مفهوم خاص لحقيقة ما بعد الموت. أما ماذا كان يعتقد الأنباط بصدد هذا الأمر فذلك من الصعب تحديده بدقة، إلا إن جعلنا رموز الجمال والخيل والدلافن في معابدهم وسائل لنقل الميت عبر البرزخ الفاصل بين حياتين، فإن لم يكن الأمر كذلك فإن الاهتمام بالموتى كان يعني تدميث مضجع مريح للميت لا يقلقه فيه الأحياء.



- ٩ -
الفن النبطي ـ نظرة موجزة :

إن كثيراً مما قيل في الفصل السابق يصلح أن يذكر في هذا الفصل ذلك لأن معظم الفن النبطي يتصل اتصالاً وثيقاً بالدين، فإذا تحدثنا عن الفن المعماري مثلاً كان حديثنا في معظمه عن القبور والمعابد، وإذا تحدثنا عن فن النحت لم نكد نتجاوز الحديث عن تماثيل الأرباب، وتجنباً للتكرار أرى أن أجتزىء في هذا الفصل بملاحظات ضرورية لا يستغني عنها الدارس ـ دون الدخول في التفصيلات الدقيقة ـ حول أمور لم تذكر من قبل أو ذكرت عرضاً وتتطلب مزيداً من التبيان.

الفن المعماري النبطي فريد في انتقائيته وقدرته على الاستمداد من فنون أمم أخرى، فأنت قد ترى فيه ملامح مصرية أو بارثية أو يونانية أو غير ذلك، ولكنك تجده في صورته العامة «نبطياً» في طابعه، وهذا الفن المعماري على أوضحه يتجلى في القبور المجوبة وفي المعابد.

أما القبور المجوبة فكان الصانع يبدأ بنحتها في لحف هضبة أو مرتفع، فيجعل سطحها أملس ثم ينحت الواجهة التي مهدها من الأعلى إلى الأسفل، يساعده في ذلك الصخر الطبيعي بما فيه من طواعية نسبية، وهو بهذا العمل يتحاشى التعقيدات المعمارية لأن لحف الجبل لا يحتاج إلى دعم ولا إلى إرساء أسس، وإنما قد يحتاج عمال البناء والمهندسون أسكلات يرتكزون عليها، ثم يتم العمل حسب خطة مرسومة، فتفتح أماكن النوافذ في الطبقات العليا، ويتم الحفر الناتىء على عمق ضحل في الصخر وتنحت

الأعمدة في الغالب عارية من الزخرفة في تيجانها، يستثنى من ذلك أعمدة الخزنة التي انتحلت النمط الكورنثي. وأحياناً تزود تيجان الأعمدة برؤوس بشرية، ولكن بقاءها دون أية زخرفة هو الطابع العام، كذلك فإن الرموز المصاحبة لهذه الأضرحة تكاد لا تتغير فهي الصقر والجرة والقناع الآدمي، وتشذ هنا الخزنة أيضاً لأنها تتمتع بمزيد من الرموز الزخرفية. وفي داخل غرف الضريح تكاد الزخرفة تكون معدومة، ونسقها يكاد لا يتغير فهناك غرفة كبرى متوسطة تفضي إلى صفوف من الغرف الصغرى على الجانبين.

ويختلف الفن المعماري في المعابد عنه في القبور من حيث أن المعابد لا تنحت أحياناً في الصخر بل تبنى بالحجارة، وفي هذا المجال تبرز أهمية معبد التنور في تجلية الصورة حول الفن المعماري في المعابد، فالمراحل الثلاث التي تمّ بناؤه فيها ترسم تطوراً في الفن المعماري من حالته الساذجة، في المرحلة الأولى إلى حالته المتقدمة فنياً في المرحلة الأخيرة كما أن المحفورات البارزة فيه تقدم أعلى نموذج عرفناه حتى اليوم لفن النحت النبطي.

فإذا انتقلنا من الفن المعماري الديني وجدنا خارج نطاقه الطيطر الرئيسي في بترا، وقد تمثلت فيه قدرة المعمار النبطي على اتقان النحت وقدرته على البناء بالحجر. وفي هذا السياق كله في الحديث عن الفن المعماري بمختلف أوجهه تحدد لدينا أن الغالب على فن النحت النبطي هو المنحوتات الناتئة، ومرة أخرى نجد في معبد التنور خير الأمثلة عليها، وليس لنا إلا أن نتذكر هنا ما تقدم ذكره في النص السابق حول تمثالي زيوس ـ هدد وقرينته أترعتا، والشبه كبير في التفاصيل والقسمات بين أترعتا وكلّ من ربة الحظ (تايكه) وربة النصر (نايكه) وخاصة في طبيعة اللبس وتصفيف الشعر والانطباع الحيوي الذي توحيان به. ويلحق بالمنحوتات البارزة في هذا الباب التماثيل الصغيرة المفردة (Figurines) ومنها تماثيل حيوانات كالخيل



الشكل (٢٠): نموذج لفن النحت النبطي الضعيف التأثر بالهلينية .

والجمال وبقر الوحش والقرود ومنها تماثيل دينية، وتماثيل آدمية، ودرجة الفن والمهارة في هذا النوع متفاوتة، ولكن النمط المتبع في أشكال العينين والشفتين في المنحوتات البارزة متوفر هنا أيضاً. وأكثر التماثيل الصغيرة التي عثر عليها تتصل بالخيل وما يصلح لها من لجم وسروج وأرسان، وأحياناً يصور الفرس مع راكبه، وتشيع تماثيل الجمال ولكن على نحو أقل من الخيل، أما تماثيل الآدميين فإنها قليلة وأشيعها تمثال أنثى تجلس على مقعد مستطيل، وشعرها طويل وفي جيدها طوق أو عقد وهي عارية، وقد رفعت يدها اليمنى، وتمنطقت بنطاق ولبست الخلخال، ولعلها إحدى الربات.

وإذا استثنينا الرسم على الخزف، وجدنا أن نماذج الرسم لدى الأنباط ـ وخاصة الرسوم الجدارية ـ لا تتعدى ما وجد فيما يسمى « المعبد المزين بالرسم » في البارد قرب بترا، وعلى أحد السقوف الداخلية فيه. وقد عبث الزمن والدخان بهذا الرسم فأحاله عن حاله حتى غدا باهتاً (ولا يعرف إن كان قد بقي حتى اليوم أو زال) وهو في مجمله يمثل منظراً كالمناظر التي ترسم على السجاد حافلة بالكرمة والأزهار والطيور والأشكال الخرافية، فهنالك عرائش كاملة من الكرمة التي أثقلتها العناقيد، تتخللها وتتواشج بها أنواع من الزهر، وتبدو الطيور في مناظر جانبية وبعضها ساكن وبعضها في حال طيران أو منهمك في نقر العنب، وهي واقفة على الأغصان أو سارية خلالها، ومن أصناف الطيور: اللقلق والزقزاق الشامي أو أبوطيط ودجاج الأرض، وفي وسط هذه الدنيا الريفية ثلاثة أشكال خرافية، كلّ منها يحتل موقعاً مستقلاً وسط الأوراق والثمار، وهي تمثل بان (رب الغابات والأرياف) ينفخ في شبابته، وايروس (رب الحرب) وقد نزع في قوسه، وايروس مجنحاً وقد فرج رجليه فوق صقر، ومال برأسه جهة اليمين. وقد ندفع كل استغراب لوجود هذه الصور إذ تذكرنا أن عبادة بان كانت شائعة في الشرق الأدنى وخاصة في الأيام الهلنستية الأخيرة والرومانية وكان له معبد في بانياس (قيسارية فيلبي) وكان ايروس أحد الآلهة في الكوكبة النبطية.

هذا كله يبدو على الجانب الأيسر من السقف، فأما الجانب الأيمن فإنه مكمل له بالزخرفة النباتية وصور الطيور وصورة لايروس. ويصعب الحكم على طبيعة التلوين في هذا الرسم بعدما بهت، ولكن من المعروف أن الأنباط كانوا يستعملون الألوان البراقة اللامعة وبخاصة الأصفر والأحمر، ويمكن أن يعود هذا الرسم في تاريخه إلى القرن الأول بعد الميلاد أو أوائل القرن الثاني، وذلك هو التأريخ التقديري لتماثيل معبد تنور وقصر ربة (وفيها تمثال لايروس مجنحاً ولغزال ورؤوس أسود وكبش وفهد) وإلى هذا التاريخ نفسه تعود منحوتات بترا، والخزف الذي يحمل أيضاً رسوم النباتات والطيور.

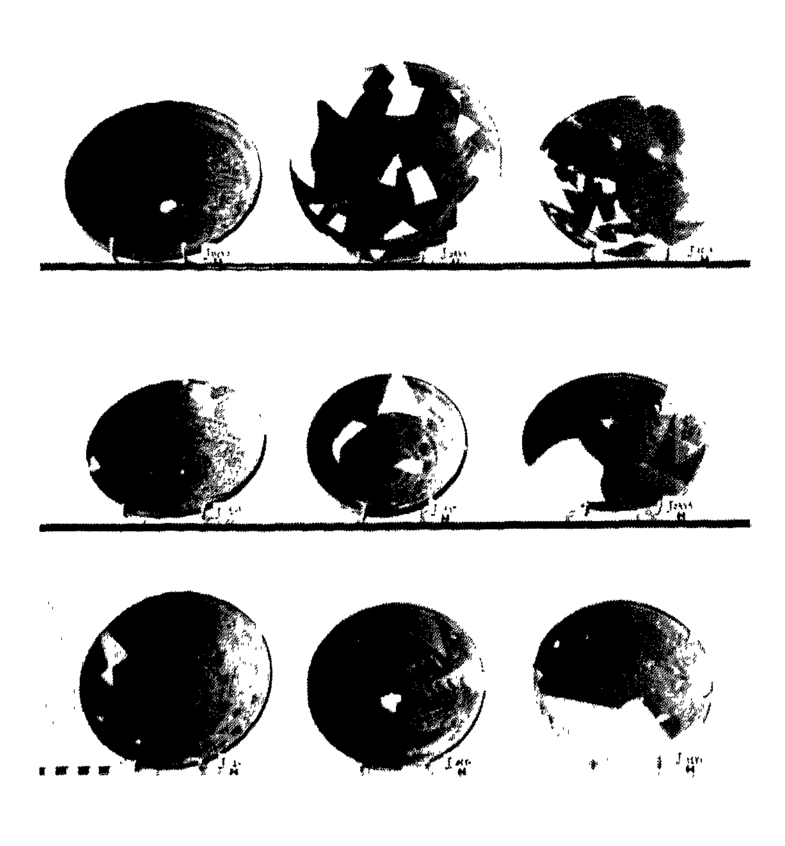
والخزف النبطي نوعان: نوع مطليّ ونوع غير مطليّ وأهم ما يميز النوعين معاً نوع الصلصال نفسه، وهو أحمر قرميدي بعد تعريضه للنار لوجود مادة الحديد فيه، ولكن ليس كل الخزف النبطي أحمر، ذلك أنه عند استعمال أنواع مختلفة من الصلصال ينتج عن ذلك لون رمادي، أو لون مائل إلى السمرة، وهذا واضح في بعض نماذج القناديل التي لا يشك في أنها نبطية لوجود نقوش نبطية عليها. وقد وجد الخزف الرمادي بكرنب بالنقب.

ويميز النوع المطلي برهافته الشديدة ورقته حتى ليشبَّهُ في الرقة بقشرة البيضة ، على نحو المبالغة، وسمكه ١ ـ ٤ مليمترات، وهذه الخصوصية في هذا النوع من الخزف هي التي كانت علامة فارقة في تمييز المواقع النبطية وتحديدها، واللون الغالب في هذا النوع هو الأحمر القرميدي أو المائل إلى السمرة، وينتظم الطاسات والكؤوس والأكواب والجرار والأباريق الصغيرة. والزخرفة على الطاسات تغطي الصفحة الداخلية، وكذلك الحال في بعض الأكواب، أما الأصناف الأخرى فالزخرفة فيها على الوجه الخارجي. والكؤوس والأكواب كثيرة التنوع ولكنها صغيرة العدد، فأما الجرار المدهونة والأباريق فإنها نادرة، وكل هذه الأشكال يتم صنعها

بدولاب الخزاف. والرسوم على الخزف نماذج متعددة، فهناك النماذج النباتية وبعضها مميز كالرمان والزيتون واللوز والعنب، وبعضها وريدات أو نخيلات أو أوراق نباتات أخرى. والقليل القليل منها يحمل رسوماً حيوانية كالحمامة وبقرة الوحش. والزخرفة في الجملة تخضع لقواعد هندسية يقسم السطح بموجبها إلى مناطق محددة. وليس هناك رسم قد جرى عفواً دون هندسة. وبين نموذج الرسم وتوزيع الأشكال ولون الدهان وشكل الاناء علاقة انسجامية وهذا يدل على حذق الخزاف النبطي وعمق إدراكه الفني.

أما غير المطلي من الخزف النبطي فيمكن أن يقسم في عدة أنواع: منها النوع العاطل الساذج، ومنها المزخرف بالتضليع أو التموج، وهذان أكثر ما يوجدان في الأحقاق والجرار وقدور الطبخ، أو المزخرف بالتلبيس الذي يغطي الإناء كله وخصوصاً الجرار، أو يغطي الحافة وحدها. وللخزف غير المطلي قاعدة، أما المطلي فلا قاعدة له، والسبب في ذلك يرجع إلى الاختلاف في طبيعة الاستعمال، فالخزف المدهون كان يستعمل في الوجبات عند قبور الموتى أو يودع في القبر ليرافق الميت في رحلته (إن كانت له رحلة) وهناك ما يدل على أن الشعائر كانت تقضي بتحطيم جميع الأواني لئلا تستعمل مرة أخرى، ولهذا السبب فالقاعدة لها غير ضرورية لأنها كانت توضع على الرمل أو على التراب، وأما الخزف غير المطلي فكان ماعوناً للمنازل ولذلك كان ارتكازه على قاعدة أمراً ضرورياً.

وهناك أنواع من الخزف النبطي لا تصنع بواسطة الدولاب، وإنما يتم صنعها قولبةً، ومن أهمها القناديل، ويصنع القنديل المقولب في جزءين منفصلين أحدهما القاعدة والآخر الرأس ثم يطبقان معاً ويشويان على النار. والقنديل النبطي النموذجي ذو لفات حلزونية وليس له مقبض، وهو مستدير الجسم مسطح القاعدة مزخرف بدائرتين متحدتين في المركز محفورتين حفراً، وفيه ثقب محوري. والزخارف خطوط مائلة قد ركبت فوقها وريدات. وهناك نوع ذو مقبض ووسطه قد زين بشكل في صورة



الشكل (٢١): نماذج من الخزف النبطي.

قلب مكرّر. وهذان النموذجان النبطيان يحملان نقوشاً قد يقرأ بعضها مثل «س ل م» ويقول دارسون آخرون إنها مما تتعذر قراءته، وكلها ترجع في تاريخها إلى القرن الأول ق. م. والقرن الأول ب. م. وتوجد قناديل بأعداد وفيرة مستوردة من إيطاليا، ومن المحتمل أن الأنباط كانوا يصنعون مثلها على سبيل المحاكاة. وتتميز القناديل الرومانية بقرص تتخلله دوائر محفورة وهو مزود بزخرفة مختلفة، فعلى أحد تلك القناديل من بترا صورة شخص مجنح وقد حمل بيده اليسرى سنبلة قمح ووضع يده الأخرى على كرة (لعلها درع) وهو يمثل فئة من القناديل الرومانية التي كانت تتهادى في عيد رأس السنة.

ولاستكمال الصورة الكبرى للفن النبطي، لا بد أن نقف عند صناعتين تبرزان بعض الجوانب الفنية وهما صناعة الحليّ وضرب النقود:

وما يمكن أن يقال في شأن الحليّ نزر قليل، فقد عرفنا من المنحوتات النبطية وجود الخلاخيل والأطواق ذات النهايات «الأسدية». وكذلك كانت هناك أساور وعقود وأقراط. وكلها صنع من معادن متنوعة ولكننا لا نستطيع الحكم على مدى التفنن في صنعها.

وأما النقود فيمكن أن تصنف في نوعين: نوع قبل حكم عبادة الثاني (من القرن الأول ق. م.) وهي نسخ عن العملة الهلنستية، ولهذا فإن قسمات الوجه ونمط الشعر هلنستية كذلك، ويبدو عليها رأس ملكي وشكلان من أشكال ربة الحظ (تايكه) وصورة الصقر البطلمي. ونوع منذ عبادة الثاني حتى رب إيل الثاني، ويبدو فيها الأنف كبيراً، والعيون مثبتة في أطر والشفاه مزمومة، والشعر الطويل يغطي الكتفين أو العنق كله على الأقل، وهذا ينطبق على الذكور والإناث، والفارق الوحيد هو الشال أو النصيف الذي يغطي رأس الملكة أو إكليل الغار والشاربان التي تميز الملك.

وفي حكم حارثة الرابع بالذات تعددت نماذج العملة النبطية

وتوافرت بكثرة، ورغم أن الأشكال الفنية عليها كانت مستوحاة من النماذج الهلنستية فإنها كانت مشرقية في طابعها الكلي: الجسم مصبوب بصلابة، والرأس مرسوم من جانب، والعينان محدقتان، والكتفان منصوبتان على نحو مواجه للتعبير عن قوة الجسد، وكذلك الجذع والساقان، وتسريح الشعر نمطي تتكرر فيه أساليب التموجات والجدائل، وبعبارة أخرى إن الفن على النقود مكمل لصورة المنحوتات البارزة.



ملحق
ترتيب ملوك الأنباط

ليتمان	ستاركي	مجموعة النقوش (CIS)
		حارثة الأول
حارثة الأول	حارثة الأول	مالك الأول
حارثة الثاني (ايروتيمس)	حارثة الثاني	ايروتيمس
عبادة الأول	عبادة الأول	حارثة الثاني
رب ايل الأول	رب ايل الأول	عبادة الأول
حارثة الثالث	حارثة الثالث	رب ايل الأول
عبادة الثاني	×	حارثة الثالث
مالك الأول	مالك الأول	مالك الثاني
عبادة الثالث	عبادة الثاني	عبادة الثاني
حارثة الرابع	حارثة الرابع	حارثة الرابع
مالك الثاني	مالك الثاني	مالك الثالث
رب ايل الثاني	رب ايل الثاني	رب ايل الثاني
مالك الثالث	×	

مصادر الدراسة ومراجعها

١ ـ المصادر الكلاسيكية وما يلحق بها

1) The Bible : (سفرا المكابيين الأول والثاني، وهما لا يردان في الترجمة البروتستانتية، بل يردان في الترجمة الكاثوليكية).

2) Dio Cassius: Dios's Roman History, The Loeb Classical Library.

3) Diodorus: Diodorus of Sicily, The Loeb Classical Library, New York, 1933.

4) Josephus, Flavius : Antiquities of the Jews.

5) Josephus, Flavius: The Jewish War.

6) Strabo: The Geography of Strabo, The Loeb Classical Library, Cambridge, Mass. 1961.

٢ ـ الدراسات

أ ـ الكتب عن الأنباط:

1- Bowersock , G.W. Roman Arabia, Harvard University Press, 1983.

2- Browning, Iain. Petra, London, 1982.

3- Cantineau, J. Le Nabatéen, Vol. I Notions générales Ecriture grammaire, Paris, Ernest, Leroux, 1931: Vol.II Choix de Texte. Lexique, 1932.

4- Cook, G.A. A Text - Book of North - Semitic Inscriptions, Oxford, The Clarendon Press, 1903.

5- De Laborde, M.L. Journey Through Arabia Petraea, London (2nd ed.) 1838.

6- Glueck, Nelson. The Other Side of the Jordan, New Haven: American Schools of Oriental Research, 1940.

7- Glueck, Nelson. The Story of the Nabataeans, Deities and Dolphins, London, 1966.

8- Hammond, Philip C. The Nabataeans - Their History, Culture and Archaeology, Sweden, 1973.

9- Kammerer, A. Pétra et La Nabaténe, Paris, Paul Geuthner, 1929.

10- Kennedy, Alexander: Petra, Its History and Monuments, London, Country Life, 1925.

11- Lawlor, John Irving. The Nabataeans in Historical Perspective, Grand Rapids, Michigan, 1974.

12- Littmann, E. Semitic Inscriptions, Division IV Section A, Nabataean Inscriptions From the Southern Hauran (Princeton University) Archaeological Expeditions to Syria 1904- 1905 and 1909, Leyden, 1914.

13- Murray, Margaret Alice. Petra, The Rock City of Edom, London and Glasgow, Blackie and Son, Ltd, 1939.

14- Negev, Avraham. The Nabataean Potter's Workshop at Oboda, Bonn, 1974.

15- Robinson, G.L. The Sarcophagus of an Ancient Civilization: Petra, Edom and the Edomites, New york, 1930.

16- Rostovtzeff, M. Caravan Cities, Oxford, 1932.

ب ـ كتب لا تتصل مباشرة بالأنباط

17- Groom, Nigel. Frankincense and Myrrh, Longman Groups Limited and Librairie du Liban, 1981.

18- Schürer, E. A History of the Jewish People in the Time of Jesus, New York, 1967.

19- Trimingham, J.S. Christianity among the Arabs in Pre-Islamic Times, Longman Groups Limited and Librairie du Liban, 1979.

٣ - البحوث:

1- Abu Taleb, M. Nabayati, Nebayot, Nabayat and Nabatu: The Linguistic Problem Revisited; Dirasat, pp. 3-11.

2- Barllett, J.R. From Edomites to Nabataeans: A study of Continuity, PEQ (1979), pp. 35-66.

3- Bennett, C.M. The Nabataeans in Petra, Archaeology 15 (1962) pp. 233 - 234.

4- Bowersock, G. W. Nabataeans and Romans in the Wadi Sirhan; in: Studies in the History of Arabia, Vol. II (Pre-Islamic Arabia, 1984) pp. 133-136.

5- Canaan, T. Studies in the Topography and Folklore of Petra, JPOS, Vol. IX pp. 136-142.

6- Eadie, J.W. and John peter Oleson: The Water-Supply Systems of Nabataean and Roman Ḥumayma, BASOR 262 (1986) pp. 49-75.

7- Glueck, Nelson: The Early History of a Nabataean Temple (Khirbet et-Tannur) BASOR 69 (1938), pp. 7-18.

8- Glueck, Nelson: Nabataean Syria and Nabataean Trans-Jordan, JPOS (1938) Vol. 18, pp. 1-6.

9- Glueck, Nelson: Nabataean Syria, BASOR 85 (1942) pp. 3-8.

10- Glueck, Nelson: Nabataean Painting, BASOR 141 (1956) pp. 13-23.

11- Hammond, Philip C. The Nabataean Bitumen Industry at the Dead Sea, XXII(1959) pp. 40-48.

12- Hammond, Philip C. Petra, BA, 23 No. I (Feb.1960) pp. 29-32.

13- Hammond, Philip C. Nabataean New Year Lamps from Petra, BASOR 146 (1957), pp. 10-13.

14- Hammond, Philip C. The Medallion and Block Relief at Petra, BASOR 192 (1968) pp. 16-21.

15- Hammond, Philip C. Rose - Red City of Petra; Natural History 73, NO. 2 (Feb. 1964) pp. 15-25.

16- Hammond, Philip C. Desert Water Works of the Ancient Nabataeans, Natural History, 76. No. 6. (June-July 1967) pp. 37-43.

17- Hammond, Philip C. Pattern Families in Nabataean Painted Ware, American Journal of Archaeology 63, No. 4. (Ocotober 1959) pp. 371-381.

18- Hammond, Philip C. The Excavations at Petra, 1974; Cultural Aspects of Nabataean Architecture, Religion, Art and Influence, SHAJ (Amman 1982) pp. 231 - 238.

19- Honigman, Nabataeans (in EI. 1st ed.) Vol. III pp. 801-802.

20- Horsfield, G and A. Sela-Petra, The Rock of Edom and Nabatene, QDAP, VII (1938) pp. 1 - 42; VIII (1938) pp. 87-115; IX (1942) pp. 105-204.

21- Iliffe, J. H. Nabataean Pottery from the Negeb, QDAP, Vol. III, pp. 132-135.

22- Khairy, Nabil: Fine Nabataean ware with Impressed and Rouletted Decorations, SHAJ, (Amman 1982) pp. 275 - 283.

23- Khairy, Nabil: A New Dedicatory Nabataean Inscription from WadiMusa, PEQ (1981) pp. 19-26.

24- Khairy, Nabil: Nabataean Piriform Unguentaria, BASOR (1980) pp. 85-91.

25- Kirwan, Sir Laurence: Where to search for the Ancient port of Leuke Kome in: Studies in the History of Arabia, Vol. II (Pre-Islamic Arabia, 1984) pp. 55-61.

26- Knauf, E.A. Nabataean Origins, (a paper read at the third Conference on the History of Bilad al-Sham) in the press.

27- Kraeling, C.H. The Nabataean Sanctuary at Gerasa, BASOR, 83 (1941) pp. 7-14.

28- Littmann, E. Nabataean Inscriptions from Egypt, BSOAS, (1953), Part I, pp. 1-28; (1954), Part II, pp. 211-246.

29- Meshel, Ze'ev and Yoram Tasfrir: The Nabataean Road from Avdat to Sha'ar-Ramon, PEQ (1974), pp. 103-118: PEQ (1975), pp. 3-21.

30- Milik, Joseph T. Origine des Nabatéens, SHAJ (Amman 1982) Vol. I., pp.261 - 265.

31- Milik, J.T. and J. Teixidor: New Evidence on the North-Arabic Deity «Aktab-Kutba», BASOR 163 (1961) pp. 22-25.

32- Morton, W. Umm el-Biyara, BA (1956) Vol. XIX, pp. 26-36.

33- Negev, A. The Date of the Petra-Gaza Road, PEQ, (1966) pp. 89-98.

34- Negev, A. The Chronology of the Middle Nabataean Period, PEQ (1969) pp. 5-14.

35- Negev, A. A Nabataean Statuette from Jordan, PEQ, (1974) pp. 77-78.

36- Negev, A. The Early Beginnings of the Nabataean Realm, PEQ, 108 (1976) pp. 125 - 133.

37- Negev, A. Nabataean Inscriptions in Southern Sinai, BA (Winter 1981) pp. 21-25.

38- Negev, A. Numismatics and Nabataean Chronology, PEQ 114 (1982) pp. 119 - 128.

39- Nielsen, Ditlef: The Mountain Sanctuaries in Petra and its Environs, JPOS (1931) Vol. XI, pp. 222-240; Vol. XIII (1933) pp. 185-208.

40- Ovadiah: Asher. Was the Cult of the God Dushara- Dusares practised in Hippo-Suista, PEQ (1981) pp. 101-104.

41- Perlman, Isidore, Jan Gunnweg and Joseph Yellin: Pseudo Nabataean Ware and Pottery of Jerusalem, BASOR 262 (1986) pp . 77-82 .

42- Peters, F .E . The Nabataeans in the Hawran, JAOS 97 (1977) pp . 263-277 .

43- Rabinowitz, J. J. A Clue to the Nabataean Contract from the Dead Sea Region, BASOR 139 (1955) pp. 11 - 14.

44- Schmitt-Korte, K . Nabataean Pottery: A typological and Chronological Framework, In Studies in the History of Arabia, Vol . II (Pre-Islamic Arabia, 1984) pp . 7-40 .

45- Starcky, Jean: The Nabataeans, A Historical Sketch, BA XVIII, New Haven (1955) pp . 84-106 .

46- Starcky, Jean: Quelques Aspects de La Religion des Nabateens, SHAJ (Amman 1982) pp. 195 - 196.

47- Strugnell, J . The Nabataean Godess «al-Kutba» and her sanctuaries, BASOR 156 (1959) pp . 29-36 .

48- Wright, G. R. H. The Nabataean Temple at Dhiban, a Suggested Reinterpretation, BASOR 163 (1961) pp . 26-30 .

49- Wright, G .R .H . Strabo on Funerary Customs at Petra, PEQ (1969) pp . 113-116 .

50- Zayadine, Fawzi: Recent Discoveries in the Necropolis of Petra, in Studies in the History of Arabia, Vol . II (Pre-Islamic Arabia, 1984) pp . 63-66 .

٤ ـ مراجع ودراسات عربية أو معربة:

١ ـ جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (جـ :٣) الفصل الأول (ص ٥ ـ ٧٥)، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٧٨.
٢ ـ لطفي عبد الوهاب يحيى: الوضع السياسي في شبه الجزيرة العربية حتى القرن الأول الميلادي، في دراسات في تاريخ الجزيرة العربية، الكتاب الثاني، وبخاصة ص ٩٦ ـ ٩٩.
٣ ـ مصطفى كمال عبد العليم: تجارة الجزيرة العربية مع مصر في المواد العطرية في العصرين اليوناني والروماني (المصدر المذكور سابقاً) وبخاصة ص ٢٠٢ وما بعدها.
٤ ـ سيد علي أحمد الناصري: الصراع على البحر الأحمر في عصر البطالمة (المصدر المذكور سابقاً) ص ٤٠١ ـ ٤٢٨.
٥ ـ رنيه ديسو: العرب في سوريا قبل الإسلام، ترجمة عبد الحميد الدواخلي، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٨٥م.

بيان بالاختصارات

BA=	The Biblical Archaeologist.
BASOR=	Bulletin of American Schools of Oriental Research.
BSOAS=	Bulletin of the School of Oriental and African Studies.
EI=	Encyclopaedea of Islam.
JAOS=	Journal of the American Oriental Society.
JPOS=	Journal of the Palestine Oriental Society.
PEQ=	Palestine Exploration Quarterly.
QDAP=	Quarterly of the Department of Antiquities in Palestine.
SHAJ=	Studies in the History and Archaeology of Jordan, Vols .I and II (Department of Antiquities, Amman 1982, 1985).

فهـرس أسماء الأشخـاص والأرباب والأماكن

فهرس المحتويات









تاريخ دولة الأنباط

حين كلفت بكتابة تاريخ بلاد الشام على ضوء البحوث التي قدمت – وما تزال تقدَم – إلى مؤتمرات تدعو لها الجامعة الأردنية، في دورات منظمة، وتحمل عنوان «مؤتمرات تاريخ بلاد الشام» كنت على يقين أنني أتحمل مسؤولية كبيرة، وأواجه مهمة غير سهلة. كذلك رأيت ان عملي لا يقتصر على قراءة البحوث التي تلقى في المؤتمرات المشار اليها، بل لا بدّ لي من الرجوع إلى المصادر الكثيرة والدراسات والبحوث المتعددة، فعكفت على القراءة وتدوين الملاحظات التي سأستخدمها في إنجاز المشروع الكبير.

وفيما أنا آخذ في هذا الاتجاه من التثقيف الذاتي، وجدت أن هناك جوانب على هامش المشروع الكبير تستحق التجلية والإيضاح، ولذلك خطر لي أن اقوم ببعض دراسات منفصلة، أو أترجم بعض فصول من مصادر قيمة، فأخدم تاريخ بلاد الشام على مستويين. وقد قطعت شوطاً طويلاً في دراسة تاريخ الدول التي ظهرت في بلاد الشام (في فترات تقع خارج نطاق المشروع الكبير) فرأيت أن أشرك القراء معي في ما وجدته من كشوف أثناء قراءاتي ، وبدأت بتاريخ دولة الأنباط، لأني لم أجد شيئاً يشفي الغليل عن دورها التاريخي الحضاري ، مكتوباً بالعربية.

إحسان عباس

«من المقدمة»

الناشر

دار الشروق للنشر والتوزيع عمّان – الأردن

دار الشروق للنشر والتوزيع رام الله – فلسطين

تصميم الغلاف: محمد نصرالله